مجلة كلمة حق
السنة الأُولى
العدد 06 | يناير 2018

كَلِمَةُ حَقٍّ



تفكيك الثورة الموازية
عبد الغني مزوز

عقيدة مكافحة التمرد الأمريكية
م. أحمد مولانا

مسألة الشرعية لدى حركة المقاومة
محمد إلهامي

تفكيك أدوات السلطة
د. عمرو عادل

العلاقة بين الحاكم والمحكوم (3)
د. البشير عصام المراكشي

وغيرها من المقالات ...

محتويات العدد

كلمة حق

دورية ثقافية معرفية
نخبة من الكتاب والمفكرين

العدد السادس . يناير 2018

klmtuhaq

www.klmtuhaq.blog

الافتتاحية ...

مائة عام على مولد: يوشع براور ومحمد الغزالي

محمد إلهامي



”

في عام 1936 ، وهو عام اندلاع الثورة الفلسطينية الكبرى، أي قبل الإعلان عن دولة إسرائيل باثنتي عشرة سنة، وصل إلى فلسطين شاب يهودي من بولندا في التاسعة عشرة من عمره، واتخذ قرارا بالاستقرار في «إسرائيل»، وهناك عكف على البحث والتنقيب في عصر الحروب الصليبية لكن من زاوية تندر فيها المؤلفات، ولم تمض خمسة أعوام حتى صدرت دراسته الأولى «دور اليهود في تجارة العصور الوسطى» (1941)، وظل يوالي البحث والتأليف لنصف قرن بعد هذه المدة، وقد انتقل للاستقرار في القدس الشرقية بعد الاحتلال الصهيوني لها (1967م)، حتى صدرت آخر مؤلفاته في القدس، وهو «تاريخ بيت المقدس: الحملات الصليبية والحقبة الأيوبية» (1991)، وهو ذات العام الذي توفي فيه.



هذا الشاب هو يوشع براور، مؤسس وزعيم مدرسة المؤرخين الإسرائيليين المتخصصة في دراسة الحروب الصليبية، وهو أبرز مؤرخ إسرائيلي في هذه الحقبة، وتلاميذه هم أهم المؤرخين الإسرائيليين في هذه الفترة، مثل: سلفيا سكين وبنيامين كيدار وأربيه جرابوا وغيرهم. وقد صدر له بعد وفاته كتاب تكريمي احتوى على 22 دراسة في التأريخ للحملات الصليبية ومملكة بيت المقدس كتبها أبرز مؤرخي تلك الحقبة في العالم، ومنهم ستيفن رانسيمان ورايلي سميث وكلود كاهن وغيرهم.

وضع براور كافة طاقته في خدمة الشروع الصهيوني، ليس فقط من حيث التأليف العلمي الحافل، وإنما بمشاركته منذ أيامه الأولى في القتال والمعارك، فقد انضم مطلع قدومه إلى العصابات الصهيونية، وأصيب في بعض معاركها، وعاصر سائر الحروب التي خاضها الكيان، ومات وهو يشهد الانتفاضة الفلسطينية، فختم حياته بذات المشهد الذي افتتحها به: مشهد المقاومة الفلسطينية المستمرة. وما بين البداية والنهاية عمل مستشارا للحكومة الإسرائيلية في التعليم، وفي مناصب أخرى ساهمت في تشكيل الوعي الصهيوني صغارا وكبارا، بل إنني وجدت ضمن خبر منشور (هاآرتس: 28 نوفمبر 2016) أن مريم زوجة رئيس الوزراء الصهيوني ليفي أشكول عملت كباحث مساعد مع يوشع براور.

أجاد براور خمس لغات: الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية واللاتينية إضافة إلى العبرية، وكتب مؤلفاته بالعبرية والإنجليزية والفرنسية، مما أكسبه اطلاعا واسعا على مؤلفات الحروب الصليبية المصدرية، وكان حريصا على ترجمة بعض الكتب وإعادة نشرها بعد نفاد طبعاتها القديمة مثل كتاب مؤرخ الكنيسة الإيطالي مارينو ساوندو تورسيللو، ومتابعا للجديد الذي يصدر في هذا المجال. إلا أن الذي تميز به براور عن سائر السابقين له هو تركيزه الكبير على التكوين الداخلي لمملكة بيت المقدس، وأحوالها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وطبيعة سكانها والعلاقات بينهم، كذلك التوفر على دراسة الينابيع وموارد المياه، ودراسة القلاع التي بناها الصليبيون من حيث كونها مستعمرات للاستفادة بخبرتهم وتجنب ما قد يكونوا أخطأوا فيه، وله دراسات أخرى عن الحدود الجنوبية والشمالية لمملكة بيت المقدس.

ومن اللافت للنظر أنه نشر عام 1956 دراسة عن عسقلان، ثم نشر عام 1967 دراسة بعنوان "إعادة الاستقرار اليهودي في بيت المقدس الصليبية"، وهو دليل على أن الرجل لم يكن منظرا أجوف ولا كان عمله مجرد التنظير، بل كان عمله ضمن المشروع الصهيوني الذي يجري تطبيقه على الأرض، ومن ثم رافق بحثه عن عسقلان العدوان الثلاثي على مصر كما رافق بحثه عن تهويد القدس احتلال القدس الشرقية.

لا يتسع المقام لأكثر من هذا عن يوشع براور ومدرسته، ويمكن الرجوع إلى المزيد عنه ضمن كتاب "المؤرخون الإسرائيليون والحروب الصليبية" للدكتور محمد مؤنس عوض، وعن هذا الكتاب استفدت ما كتبته هنا، وكذلك إلى مقدمتي ترجمتي كتابيه إلى العربية: "عالم الصليبيين" بقلم: د. قاسم عبده قاسم، و"الاستيطان الصليبي في فلسطين: مملكة بيت المقدس" بقلم: د. عبد الحافظ البنا.

والشاهد المقصود من إيراد كل ما سبق لفت النظر إلى الاهتمام الإسرائيلي المبكر جدا للاستفادة من التجربة الصليبية، تجربة بدأت قبل الإعلان عن إسرائيل نفسها، لقد استوعب صانعو المشروع أهمية التأسيس العلمي، كما استوعب العلماء أهمية أن يدرسوا للعمل والتطبيق لا لمجرد المتعة العلمية وإعادة إنتاج وتوليد نفس الأفكار بعبارات أخرى أو بترتيب آخر.. وهو درس لا بد من استيعابه في حركتنا لتحرير بيت المقدس.

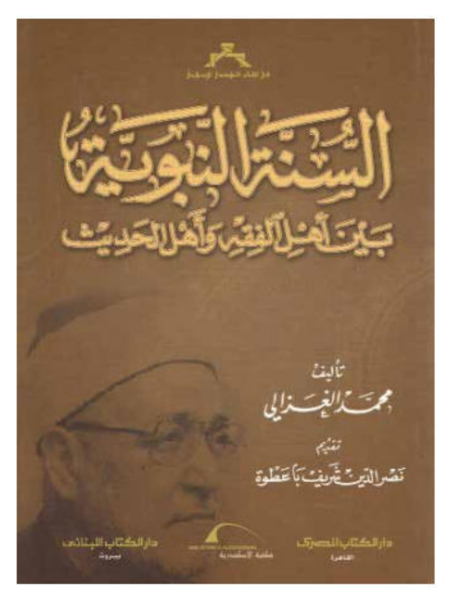
والواقع أن ما يتسرب من الإنتاج العلمي الإسرائيلي ليشهد بقوة ونضج ومجهود ممتاز، ولا نزال في العالم العربي لا نرى شيئا منه، وأحسب أنها مهمة تقع بالمقام الأول على عاتق من يجيد العبرية سواء من أبناء فلسطين أو ممن يتخصصون في اللغة العبرية.. ونحن على الحقيقة لن نستطيع خوض صراع مع إسرائيل دون معرفة دواخل مجتمعاتهم والاطلاع على دراساتهم.

لقــد كنــت قبــل أسبــوعيـن في المؤتمر الدولي السابع عشر لدراسات بيت المقدس، والتقيت فيه أحد إخواننا من عرب الـ 48، وجرى بيننا حوار حول عبء الترجمة عن العبرية الواقع عليه وعلى أمثاله، فقال لي بأن المهمة ضخمة حقا، وأن الدراسات الإسرائيلية عن ينابيع فلسطين وحدها بالعشرات، وعن نباتاتها بالمئات، وعن جغرافيتها بالآلاف، فضلا عن الدراسات المتعلقة بالفرص والمخاطر الحربية والمواقع العسكرية وغيرها.

المهمة عظيمة حقا.. ولكن الموارد والإمكانات البحثية في العالم العربي قادرة عليها، وتظل المشكلة الرئيسية الكبرى التي هي أصل وجوهر كل المشكلات: مشكلة الأنظمة العربية التي تعرف أن مهمتها حماية إسرائيل وتدمير مقومات الأمة، ولذلك تتعطل كل المجهودات وتتكسر على تلك الصخرة العتيدة.

وهو ما يعيدنا إلى القول المكرر دائما: نجاح الثورات العربية هو الطريق الوحيد لإزالة اسرائيل.

قبل أيام انتهت في اسطنبول ندوة مئوية الشيخ محمد الغزالي رحمه الله (وُلِد في 1917م)، وكانت ندوة مباركة سعى فيها وبذل لها وتابعها الأستاذ الكريم د. وصفي عاشور أبو زيد، وهو من تلامذة الشيخ الغزالي المهتمين به والمتخصصين فيه، وهو يرفعه فوق كل طبقة عصره وله نحوه عاطفة حارة.. وأحسب أن الله علم صدق نيته فهيأ له الجهود التي تكفلت بإقامة الندوة وطباعة أوراقها العلمية في مجلدين أنيقين، وكان من عجائب ما وقع فيها أن تلاميذ الشيخ انبروا في الكتابة عنه حتى إن الشيخ الأسير د. صلاح سلطان كتب خلف القضبان دراسة في مائة ورقة عن المناهج العلمية والأصولية للشيخ الغزالي في كتاب "السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث"، وكتب د. جمال عبد العزيز بحثا عن "الغزالي لغويا" من ثلاثين صفحة في ليلة واحدة. وقد شهد المجلدان حضورا لأعلام الفكر والدعوة المعاصرين بأوراقهم كالشيخ القرضاوي ود. محمد عمارة والمستشار طارق البشري ود. عماد الدين خليل والشيخ مجد مكي ود. حلمي القاعود ود. خالد فهمي وغيرهم من العلماء والدعاة والباحثين، ومن ثم فقد كانت فرصة ثمينة لأمثالي من شباب وصغار الكتاب والباحثين مجاورة هذه الأسماء.



لكن يلفت النظر أن مئوية الغزالي لم يكن ممكنا أن تحتضنها مصر وهي بلده، ولا السعودية التي درس فيها وتوفي فيها مدافعا عن الإسلام وهو مدفون بها، ولا الجزائر التي درس فيها فأثمر وكان ميزانا اعتدلت به الحالة الإسلامية ولم يزل تلاميذه الجزائريون أسرع الناس إلى الاحتفاء به.. ولا دولة أخرى من بلاد العرب! لقد تحولت تلك البلاد إلى عواصم حرب على الإسلام وأهله أو في أحسن الأحوال تتجنب أن يُنسب إليها شيء من نصرة الإسلام وأهله وإحياء ذكرى مشايخه.

ومن عجيب الاتفاق أن كلا الرجلين: الشيخ الغزالي ويوشع براور وُلِدا في نفس العام (1917)، لكن شتان ما بين ما فعلت إسرائيل في الحفاوة برجلها ومؤرخها، وبين ما فعلت بلاد العرب بشيخها وداعيتها.



تفكيك الثورة الموازية

عبد الغني مزوز

من المهم جدا أن ندرك أن اعتراض ثورات الشعوب وحرف مسارها لا يتم فقط عبر ثورات مضادة تلجأ إلى أساليب القمع والارهاب أو انقلابات عسكرية تطيح بمن بوأتهم الثورة سدة الحكم والسلطة، هذه الأساليب وإن ظلت سارية إلى عهد قريب ومستخدمة على نطاق واسع في أكثر من زمان ومكان إلا أن هناك نمطا آخر من مواجهة الثورات وتفكيك بناها وإعادة توجيه مساراتها لتنتهي عند النقطة التي بدأت منها؛ نظام مستبد عديم الشرعية ومناعة كافية للصمود في وجه أي ثورات ارتدادية قد تحصل في قادم السنوات، فالثورة إما أن تسقط نظاما مستبدا أو تمد في عمره.

هـــذا النمط من التصدي للثورات والكيد لها تم توظيفه في أكثر من ثورة وانتفاضة شعبية، لكنه أوضح ما يكون في الثورة السورية بسنواتها الست، حيث يمكن رصد ملامحه بارزة لكل متابع وملاحظ، جوهر هذا النمط يتمثل في صناعة مكونات ثورية تشارك في فعاليات الثورة (سياسيا وعسكريا) وترفع شعاراتها وتنادي بما ينادي به غيرها من الكيانات الثورية الأصيلة لكن ولائها وتبعيتها إما للنظام نفسه أو لجهات خارجية تعتبر عصب الثورات المضادة إدارة وتمويلا. فالخطر في هذه الحالة لا يأتي من معسكر النظام بقدر ما هو قابع في عقر دار الثورة. فالنظام الدولي وهو مشغول بإعادة تأهيل النظام الأسدي وترميم ما تداعى من شرعيته؛ مشغول في الوقت نفسه بتأمين معارضة له يصنعها صناعة أو ينتقيها من معسكر الثورة حسب معاييره وشروطه، وهذه من بين الأمور المهمة التي انتبه لها مبكرا الإمام حازم صلاح أبو إسماعيل.



داخل معسكر الثورة السورية بشقيها العسكري والسياسي تنشط عدة فصائل وكيانات مرتبطة عضويا وولاء إما بالنظام الأسدي أو بدول في الشرق والغرب تسعى لتأبيد النظام الطائفي وترى في سقوطه انتصارا لـ"إرهاب الجهادي". فعلى الصعيد العسكري هناك فصائل مسلحة صنعتها المخابرات الأمريكية والبنتاغون وتمت صياغة برامجها "الثورية" داخل أروقة هاتين المؤسستين، وهذا ليس من الرجم بالغيب بل هذا مما اطلع عليه الجميع واعترفت به هذه الفصائل حتى درج وصفها في الأوساط الثورية بفصائل البنتاغون، وهناك فصائل أخرى يقودها شيوخ من التيار المدخلي وتتلقى دعما سخيا من بعض دول الإقليم، ومعلوم أنه ما من ثورة تقوم إلا ويصطف المداخلة تلقائيا في الجانب المضاد لها إخلاصا منهم لعقيدتهم "السلفية النقية"، وموقفهم من الثورة الليبية والمصرية واليمنية مسجل ولا داعي لاستدعائه، وكتائب "التوحيد" و"السلفية" ما زالت تنفذ مجازرها إلى جانب أمير الحرب خليفة حفتر ضد مسلمي ليبيا إلى حد الساعة. كما أن هناك فصائل تتبع لما يسمى بغرف العمليات المشتركة (الموك مثلا) وهي غرف يديرها ضباط مخابرات أجانب وتتحكم في شؤون الفصائل المنضوية تحت مظلتها، وغالبا ما تبقى هذه الفصائل خامدة، تكدس الأسلحة في مخازنها وتصرف المرتبات لعناصرها في انتظار اللحظة المناسبة للتحرك، واللحظة المناسبة بالنسبة لهم هي عندما يسقط النظام ويصيب الإرهاق قوى الثورة فتندفع هي بكامل طاقتها وعنفوانها لتكون حينئذ رقما صعبا وصوتا مسموعا.

هذا على الصعيد العسكري أما على الصعيد السياسي فثمة طيف واسع من التيارات والأشخاص والمنصات ينسب نفسه للثورة والمعارضة ويسعى لأن يكون ممثلا في هيئات التفاوض ومؤسساته. فهناك ما يسمى بمنصة القاهرة التي صنعت على عين المخابرات المصرية، وأخرى تتخذ من العاصمة الروسية موسكو مقرا لها وتمارس نضالها السياسي من هناك، بل توجد معارضة تسمى "منصة حميميم " لأن رؤوسها كثيرا ما يترددون على قاعدة حميميم العسكرية الروسية، ولك أن تتخيل ما وسعك الخيال معارضة تستوطن قاعدة عسكرية تابعة لحامي النظام الذي تزعم معارضته! ومكمن الخطورة في كل هذا أن بعض الفصائل العسكرية التي لم يسعفها الوعي والفهم العميق لخطط النظام الدولي في إعادة إنتاج النظام الطائفي انخرطت في مسار سياسي مناقض لمبادئ وأهداف الثورة فوجدت نفسها اليوم مرغمة على الاعتراف بالمنصات المذكورة كمكونات سياسية معارضة وتتقاسم معها القرار السياسي "المعارض" ضمن هيكل تنظيمي واحد، وإلا سحب عنها الدعم ووصمت بالإرهاب.

إذن فهناك ثورة أصيلة بأفكارها ومبادئها وحركتها ومكوناتها وهناك ثورة موازية صنعت لتواكب الثورة الأصيلة وتسير بحدائها فإن حسم الصراع لصالح الثورة المضادة، فستنال حصتها من السلطة والنفوذ والامتيازات باعتبارها رافدا من روافد الثورة المضادة، وإن انتصرت الثورة كانت جزء منها إلى أن تنقلب عليها فتعيد استدعاء النظام السابق أو تؤسس شبيها له على أنقاضه. منصة القاهرة وموسكو وحميميم وفصائل المدخلية والبنتاغون.. كلها مكونات طارئة على الثورة تشكل في مجموعها خطا ثوريا موازيا للخط الثوري الأصيل الذي يسعى لتحرير الأمة من الاستبداد والتبعية ويعيد الاعتبار لهويتها وحضارتها.



ثمة عدة وسائل وطرق لفرز المكونات الثورية الأصيلة عن الموازية أو المزيفة لكن يمكن اعتماد أهم معيار للفرز والتصنيف، ونتحدث هنا عن المكونات التي نجحت في تمويه نفسها في بيئة الثورة وليس عن تلك التي تجاهر بولاءاتها وارتباطاتها، هذا المعيار هو مدى حضور مطلب الاستقلال والتحرر في حركتها وبرنامجها الثوري.

إن أصـل أزمــة الأمـة ومنبثها يكمن في وقوعها تحت وطأة الوصاية الخارجية وفقدانها لمبدأ السيادة والاستقلال، ومعظم ما يعتري جسد الأمة من علل ونكبات مجرد أعراض وتجليات لهذه الأزمة وبالتالي فإن أي حركة أو كيان يزعم المشاركة في تصحيح أوضاع الأمة لكنه يصدر في قراراته وأفعاله عن إرادة أجنبية تتبع قوى الجبر والوصاية الدولية هو في حقيقته كيان يبتغي -أدرك ذلك أم لم يدركه- تعميق الأزمة وتأبيدها، وإعطاء الفرصة لهذه القوى من أجل الالتفاف على ثورات الأمة وإعطابها من الداخل.

فــي الثــورة الســـورية -كما غيرها- عدد من الجماعات والفصائل تأسست بموجب برامج التدريب والدعم الأمريكية، بعضها يحمل أسماء تحيل على شخصيات تاريخية إسلامية ويرفع شعارات ثورية وإسلامية، لكنها أبعد ما تكون عن روح الثورة وأهدافها وتطلعاتها، إنها ثورة موازية ومشروع ثورة مضادة لم يحن أوان تحركها بعد. ولذا يجب الوعي بضرورة صيانة الثورة والتعامل مع الكيانات المشبوهة داخلها بحزم وذكاء. يجب رصد مكامن وبؤر الثورة الموازية في النسيج الثوري والعمل على محاصرتها وتفكيكها ومنع استشرائها.

وهذه المهمة تستدعي العمل على مستويات عدة

الأول: على صعيد نشر الوعي الثوري الصحيح، والتعريف بحقيقة قوى الجبر والوصاية الدولية ودورها في النكبات التي حلت بالأمة، من رعايتها للمستبدين واستنزافها لثروات الأمة ومواردها، واحتلالها بلدانا وأقطارها إسلامية عدة، وأن التعاون معها يعتبر تواطئا مع خصوم الأمة ومساهمة فعالة في العدوان عليها. وينبغي تأصيل ذلك شرعيا وعقديا.

ثانيا: محاصرة مكونات الثورة الموازية وتجريدها من الشرعية، وبيان حقيقتها للناس، وإبعادها عن دوائر صناعة القرار الثوري، ومنعها من المشاركة في فعاليات الثورة وغرف عملياتها، ووضعها تحت المراقبة.

ثالثا: العمل على تفكيك هذه المكونات في مراحلها الجنينية وعدم تركها تمتد وتتوغل داخل مفاصل الثورة، ويجب على قوى الثورة الأصيلة أن تتحد وتتكاتف فيما بينها لعزل هذه المكونات وإظهارها كنشاز يتحرك خارج الإجماع الثوري. ومن تم التعامل معها بما يحد من فعاليتها أو ينهي وجودها بالمرة.

مــن المهمــات التــي تضطـلع بهــذا هــذه الكيانات الوظيفية داخل معسكر الثورة هي المشاركة في مقترحات الحل المشبوهة التي يتقدم بها خصوم الثورة ومنحها المصداقية والوجاهة لإظهار القوى الثورية المقاطعة لها كقوى متطرفة لا تريد الحل السياسي للقضية. انظر مثلا إلى محطات التفاوض المختلفة التي تخللت مسار الثورة السورية، كل الفصائل والشخصيات المشاركة فيها مرتبطة عضويا وولاء بجهات إقليمية ودولية. وعندما ننظر إلى مشاريع التوحد والاندماج التي طرحتها بعض الفصائل من أجل تصحيح أوضاع الثورة نجد أن الجماعات الرافضة لها هي نفسها المحسوبة على الجهات الدولية والإقليمية.

من بين الأخطاء التي ارتكبها الرئيس محمد مرسي أنه لم يتعامل بحزم مع مكونات الثورة الموازية (حزب النور؛ البرادعي؛ فلول القوميين والاشتراكيين..) بل سعى للتقرب منها أكثر من مرة مقابل تهميشه قوى الثورة الأصيلة (حازمون؛ شباب الثورة؛ الإسلاميون الثوريون..) فكانت النتيجة تلك المأساة التي ما زال العالم يتابع تفاصيلها حتى الآن.



إذن،

على القوى الثورية أن تتحلى بالوعي واليقظة، وتراقب عن كثب مكونات الثورة الموازية، وتعمل على عزلها وتفكيكها، صيانة للثورة ومكتسباتها وقطعا للطريق أمام مشاريع حفترية يُراد استنساخها في سوريا وغير سوريا، تنتهي بإعادة انتاج الحقب العربية السوداء بتفاصيلها وقصصها المريرة.



عقيدة مكافحة التمرد الأمريكية

م. أحمد مولانا

استشاطت أميركا غضبا عقب هجمات سبتمبر التي استهدفت البنتاجون ومركز التجارة العالمي، وقررت الانتقام بتنفيذ غزو بربري لأفغانستان بدأ في أكتوبر 2001 ، ونجحت في تنفيذه بواسطة عدد قليل من أطقم وكالة المخابرات المركزية (110 عنصر) والقوات الخاصة الأمريكية (316 عنصر) وفقا لتقديرات رئيس السي آي إيه «جورج تينت» في مذكراته.

اقتصر دور عناصر تلك الأطقم على إدارة وتوجيه قوات تحالف الشمال الأفغانية المناهضة لحركة طالبان، وتنسيق الدعم الجوي لقصف خطوط ومواقع طالبان.

تمادت أميركا فغزت العراق في مارس عام 2003، وسقطت بغداد في يدها في أقل من 3 أسابيع على بدء العمليات العسكرية. ومن ثم أعلن الرئيس بوش انتهاء العمليات العسكرية بالعراق في مايو 2003 (سقط خلالها 721 قتيلا أميركيا). وأطلق المسؤولون الأمريكيون تهديدات بأن حملة مكافحة الارهاب المزعوم ستطال 60 دولة ولن تقتصر على العراق وأفغانستان.

بمرور الوقت أيقنت أميركا أنها وقعت في فخ، وأن الحرب بالعراق وأفغانستان تحولت إلى حرب عصابات طويلة الأمد لا يجدي نفعا فيها الاكتفاء بإرسال التعزيزات العسكرية بعشرات آلاف الجنود ، مما استدعى صياغة رؤية جديدة لمكافحة التمرد، عبرت عن دوافع صياغتها الحكومة الأمريكية قائلة (تورطت الولايات المتحدة في السنوات الأخيرة بحملات طويلة لمكافحة التمرد في أفغانستان والعراق. ودعمت العديد من الحكومات الصديقة التي تواجه أعمال تخريب داخلي في سائر أنحاء العالم. لذا أعادت الولايات المتحدة تعلم الدروس القديمة لمكافحة التمرد، ووضعت مفاهيم وأساليب جديدة لدعم الحكومات المعتدلة والمؤيدة للحرية).

العام	عدد القتلى الأمريكيين بالعراق	عدد القتلى الأمريكيين بأفغانستان
2001	صفر	12
2002	صفر	49
2003	486	48
2004	849	52
2005	846	99
2006	823	98
2007	904	117
2008	314	155
2009	149	317
2010	60	499
2011	54	418
2012	1	310
2013	صفر	127
2014	3	55
2015	6	22
2016	12	9
الإجمالي	4507	2387

جدول بعدد قتلى الجيش الأميركي في حربي العراق وأفغانستان

نشرت الحكومة الأمريكية هذه الرؤية وما تتضمنه من استراتيجيات لمكافحة التمرد في يناير 9002 تحت عنوان (دليل الحكومة الامريكية لمكافحة التمرد) قائلة فيه بأن (التمرد سيمثل عنصرا ضخما ومتزايدا ضمن التحديات الأمنية التي تواجهها الولايات المتحدة في القرن الحادي والعشرين نظرا للتوترات التي خلقتها العولمة بانهيار هياكل الدول الضعيفة، والضغوط الديمغرافية والبيئية والاقتصادية، وسهولة التعاون بين الجماعات المتمردة والمجرمين، وظهور الأيديولوجيات الراديكالية المدمرة، مما يبشر بفترة تكون خلالها الحكومة الحرة المعتدلة في خطر).

نظرا لأهمية موضوع هذا الدليل فقد اشتركت في إعداده مجموعة متنوعة من الوزارات والوكالات الحكومية الأمريكية مثل وزارات (الخارجية، الدفاع، العدل، الخزانة، الأمن الداخلي، الزراعة، النقل) بالإضافة إلى الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية، والمخابرات الوطنية.

وصفت الحكومة الأمريكية هذا الدليل بأنه (الأول من نوعه فيما يقرب من نصف قرن، فهو أفضل عمل عقائدي في موضوعه، يتسم بالعملية بالرغم من صرامته الفكرية، ويستخلص زبدة ما في الفكر المعاصر والمعرفة التاريخية، والممارسة العملية المكتسبة بشق الأنفس). وفي السطور القادمة سأستعرض أبرز ما ورد في الملخص التنفيذي للدليل المذكور بنفس التعبيرات الأمريكية الواردة فيه.

أولا التمرد:

هو الاستخدام المنظم للتخريب والعنف للاستيلاء على أو تحجيم أو تغيير السيطرة السياسية على منطقة ما. أي أنه في المقام الأول كفاح سياسي يستخدم فيه الطرفان القوة المسلحة لتهيئة مساحة تتيح لهما تفعيل نفوذهما وأنشطتهما السياسية والاقتصادية.

ولا يحدث التمرد عادة من قبل مجموعة واحدة ذات هيكل قيادة مركزي على النمط العسكري، ولكنه قد يقع من قبل مجموعات متنوعة تمثل جهات فاعلة ذات أهداف مختلفة ترتبط ارتباطا غير محكم بشبكات ديناميكية (متحركة) غير هرمية.

تتطلب عمليات التمرد كي تنجح : قيادة كاريزمية ومؤيدين ومجندين وإمدادات وملاذات آمنة وتمويل، وتحتاج دعما فعالا من جانب عدد قليل من الأفراد المتعاطفين، إذ يوفر الاذعان السلبي لنسبة كبيرة من السكان المتنازع على ولائهم احتمالية أكبر للنجاح. ويتحقق ذلك على أفضل وجه عندما تكون القضية السياسية المحركة للتمرد ذات جاذبية قوية تستثمر المظالم المجتمعية المنتشرة واحتياجات السكان وتلامس الهوية الدينية أو القبلية أو المحلية .

يسعى المتمردون باستخدامهم تكتيكات حرب العصابات إلى السيطرة على السكان من خلال مزيج من الإقناع والتخريب والإكراه كي يكافئوا قوة قوات الأمن الحكومية. ويهدفون عادة إلى إطالة الصراع واستنفاد طاقة الحكومة وكسب تأييد شعبي كاف لإجبار خصومهم على الاستسلام أو تسوية النزاع سياسيا. ونتيجة لذلك تتطور حالات التمرد خلال سلسلة من المراحل، مع التأكيد أن تعاقب سير الأمور والمحصلة تختلف حسب كل حالة تقريبا.

ثانيا مكافحة التمرد :

هــى مــزيج مــن الجهــود المدنية والعسكرية الشاملة التي تهدف إلى احتواء التمرد ومعالجة أسبابه الجذرية في نفس الوقت. وخلافا للحرب التقليدية، كثيرا ما تكون الوسائل غير العسكرية خلاله هي أكثر العناصر فعالية.

إن مكافحة التمرد عملية معقدة للغاية تتطلب من صناع السياسات فهم دقيق لمجال تخصصهم، ويجب أن تكون الاستراتيجيات المتبعة فيها مرنة وقابلة للتكيف، تركز على السكان بدلا من العدو، وتسعى إلى تعزيز شرعية الحكومة المتضررة بالتوازي مع الحد من نفوذ المتمردين. ولا يمكن تحقيق ذلك في كثير من الأحيان إلا بالتزامن مع الإصلاح السياسي لتحسين نوعية الحكم ومعالجة المظالم ذات الأولوية.

وبمــا أن حمــلات مكافحـــة التمرد الأمريكية عادة ما تنطوي على المشاركة في دعم حكومة أجنبية (إما بشكل مستقل أو كجزء من تحالف)، فإن النجاح غالبا ما يعتمد على رغبة تلك الحكومة في إجراء التغييرات السياسية اللازمة. ومع ذلك لا يمكن لأي لاعب خارجي مهما كانت درايته الفنية وحماسته أن يعوض بشكل كامل نقص الإرادة أو العجز أو السلوك غير المثمر من جانب الحكومة المدعومة.



ثالثا: متى وكيف تتخذ أميركا قرارها بالتدخل لمكافحة التمرد؟

قـــرار التـــدخـــل لا ينبغـــي أن يتم اتخاذه بشكل طائش ولا مبالاة؛ لأن حملات مكافحة التمرد أثبتت تاريخيا أنها أكثر كلفة وطولا وصعوبة مما كان متوقعا في بدايتها. ويتوقف الكثير على درجة فهم صانعي السياسات لمدى استعداد الحكومة المتضررة لتقبل المساعدة والمشورة والإصلاح؛ فمن الحماقة التدخل ما لم يكن هناك احتمال معقول للتعاون.

إذا قررت حكومة الولايات المتحدة أن تشارك في ذلك، يجب على صانعي السياسات أن يسعوا إلى تحقيق توازن دقيق يستخدم أكثر أشكال التدخل ملاءمة بحيث يبدو أكثر هدوئا وأقل فجاجة وتطفلا فضلا عن امتلاكه لاحتمالية كبيرة لتحقيق التأثير المطلوب. ولا بد من الحفاظ على سيادة الحكومة المتضررة، فزيادة التدخل إلى درجة عالية جدا قد تؤدي إلى نتائج عكسية (تاريخيا، كانت بعض التدخلات الأمريكي الأكثر نجاحا هي التدخلات الغير مباشرة والبسيطة).



رابعا: مهمات مكافحة التمرد:

المهمة السياسية:

هى المهمة الرئيسية، وتوفر إطارا للمصالحة السياسية يدور حول إصلاح الحكم، وهو ما تدور حوله جميع أنشطة مكافحة التمرد الأخرى. وبوجه عام فإن استراتيجية " مكافحة التمرد " تكون جيدة فقط عندما توجد في صميمها خطة سياسية .

المهمة الاقتصادية:

تسعى إلى توفير الخدمات الأساسية وتحفيز النمو الاقتصادي على المدى الطويل، مما يولد الثقة في الحكومة، وفي نفس الوقت تحد من أعداد الشباب والشابات العاطلين عن العمل الذين يمكن للمتمردين أن يستقطبوهم بسهولة.

المهمة الأمنية:

هي عامل تهيئي للوظائف الأخرى، ولا تنطوي فحسب على تنمية القوة العسكرية للدولة المتضررة، وإنما تشمل تنمية القطاع الأمني بالكامل بما في ذلك الإطار القانوني المرتبط بها، وآليات الرقابة المدنية والنظام القضائي. فإرساء الأمن ليس مقدما على الانشطة الاقتصادية والحكومية، بل يجب أن يتم تطوير النشاط الأمني والاقتصادي والحكومي بشكل متوازي.

المهمة المعلوماتية:

تشمل (الاستخبارات) المطلوبة للحصول على الفهم و(التأثير) لتعزيز قضية الحكومة المستهدفة. ومن الضروري أن تتماشى حملة التأثير مع الخطاب الاستراتيجي الذي يتردد صداه على مسامع الجماهير المعنية.

تسهم هذه المهام الأربع في تحقيق الهدف العام المتمثل في تمكين الحكومة المتضررة من فرض سيطرتها وتعزيزها، ثم نقل المهام من قوات التدخل إلى القوات الوطنية ومن المؤسسات العسكرية إلى المؤسسات المدنية.



خامسا: حد النجاح في مكافحة التمرد

قد يكون من الصعب تعريف النجاح في إدارة عمليات مكافحة التمرد، ولكن تحسين الحوكمة يـؤدي عـادة إلى تهميش المتمردين وايصالهم إلى النقطة التي يتم فيها تدميرهم أو تحييدهم أو تقليص خطورتهم حيث تتناقص أعدادهم وتضعف قدراتهم. وفي نهاية المطاف فإن الغاية النهائية المنشودة هي وجود حكومة ينظر إليها على أنهـا شـرعية تـسيطـر علـى مؤسسـات مجتمعيـة وسياسية واقتصادية وأمنية تلبي احتياجات السكان، وتملك آليات كافية لمعالجة المظالم التي أججت دعم البعض للتمرد





يسألونك عن الجبهة الإسلاميّة للإنقاذ (03)

الصغير منير

بعد كلّ ما ذكرناه في الجزأين السابقين من هذه السلسلة من الأخطاء والثغرات ومواضع القصور والخلل في خطاب الجبهة الإسلامية للإنقاذ وأدائها الميداني وقبل ذلك في ظروف وملابسات نشأتها وتأسيسها؛ ألم يكن للجبهة أي إنجاز يستحقّ ان يُسجّل في مآثرها ويذكرها به التاريخ كمحطة فارقة في تاريخ الجزائر المعاصر؟

لقد آثرتُ أن يكون الجزءان السابقان مسردا لكل ما يذكره الأصدقاء والأعداء من أخطاء الجبهة بحيث تندرج كل التفاصيل والجزئيات تحت ما سبق ذكره، وحتى لا يسارع أحد باتّهامي أنني أقوم بعملية تلبيس على القارئ بذكر المحاسن والإنجازات أوّلا لتصبح المساوئ والأخطاء بعد ذلك شيئا هامشيّا لا قيمة له ولا تأثير، ولأخالف العادة الغالبة في تقييم الحركات والأحزاب والجماعات التي يسبق مدحها والثناء عليها وتمجيدها نقدها وذكر أخطائها.

والآن ..

ماذا قدّمت الجبهة للإسلام في الجزائر وللشعب الجزائري المسلم وللأداء السياسيّ كلّه في الفترة القصيرة جـدّا والممتدّة من ربيع 1989 إلـى انقلاب جانفي 1992؟

أولا :

أعيد التذكير بخصوصيّة الجبهة الإسلاميّة في كونها الحزب الإسلاميّ الأوّل وربما الوحيد الذي لم يتأسس باعتباره ذراعا سياسية لجماعة دعوية أو تيّار حركيّ، وإنما كان مفتوحا على كل التيّارات التي كانت تنشط وتتحرّك في الساحة يومها، على تفاوت في تجاوب أعضاء هذه التيارات مع مبادرة تأسيس حزب إسلاميّ وفي عدد المنخرطين فيه تأسيسا أو انتماء لاحقا. وهذه الخاصّية على ما يبدو من بساطتها لأوّل وهلة ولكنّها كانت وما زالت تشكّل عبئا على كلّ الأحزاب الإسلاميّة وتسلبها استقلالية القرار فيها لصالح الجماعة ومؤسساتها - أيّا كانت هذه الجماعة - وتحرمها من كفاءات ومواهب توجد في غيرها وتُضعِف من التنوّع البشريّ والفكريّ داخلها ومن القدرة على الابتكار والاستجابة للتحدّيات. كما أنّ هذه الخاصّية تجعلنا دائما نفكّر أنّ الأمر ممكن بعيدا عن الجماعات القديمة المتكلّسة أو الحديثة فاقدة الرؤية والبوصلة وأنّ ارتباط العمل السياسيّ بالجماعات ليس ضرورة سياسيّة ولا سنّة كونيّة ولا قدرا مقدورا.

ثانيا :

الخطاب الواضح والصريح فيما يتعلّق بتحكيم الشريعة وإقامة الدولة الإسلامية، وإن كنت قد أشرتُ في الجزء السابق من هذه السلسلة أنّ الأمر لم يكن بالوضوح نفسه فيما يتعلّق بالأدوات والآليات والإمكانات والموارد البشرية وغيرها ذات العلاقة بهذا الهدف المشروع والنّبيل، ولكن وضوح الخطاب كان من القوّة والصراحة والحضور والتكرار والتأكيد عليه في كلّ أدبيات الجبهة الإسلامية وإصداراتها الإعلامية وخطاباتها السياسيّة في التجمعات أنْ أصبح هذا المطلب لأوّل مرّة حديث العامّ والخاصّ والصغير والكبير وموضع تساؤل أو ترحاب أو استنكار الإعلاميّين والسياسيين، ولم يعد سرّا يُستخفى به أو هدفا يستحي طالبه من الإعلان عنه والجهر به، وكشف هذا الوضوح فيما يتعلّق بمصطلحي (تطبيق الشريعة) و إقامة (الدولة الإسلاميّة) أنّ الشعوب المسلمة تمتلك من الرصيد التاريخي والقبول النفسي والاستعداد الاجتماعيّ والتعاطي مع هذه المصطلحات ولو بقدر من الغموض ما يؤهّلها لأن تتبنّاه وتدافع عنه بشكل من الاشكال وتجعله أولويّة وخيارا عندما تمتلك حرّيتها، وهو أمر اثبتته التجارب اللاحقة في المغرب وتونس ومصر والأردن واليمن وغيرها.

وتجدر الإشارة هنا أنّه بعد الانقلاب وحلّ الجبهة الإسلاميّة خفت هذا المطلب وتوارى من على المنابر المسجدية والإعلامية وغاب من أدبيات الأحزاب ذات الخلفية الإسلاميّة وأصبح لا يسمعه أحد في خطاب سياسيّ ولا ديباجة نصّ تأسيسيّ ومارست هذه الأحزاب نوعا من الإرهاب الإعلامي والنفسي حول هذه المصطلحات والتعامل معها ومع من يرفعها وينادي بها بنوع من الاحتقار والاستعلاء والاتّهام بالسذاجة والسطحية وأحيانا كثيرة بالغلوّ والتطرّف بشكل فيه قدر كبير من التعميم الجائر والسعي إلى نفي ما تراه تهمة، وهنا استثني خطاب الشيخ عبد الله جاب الله فهو في هذه النقطة أكثر وضوحا وحسما.

ثالثا :

الانتشار الواسع جدّا في كل عواصم الولايات والبلديات والقرى والمداشر وحتى البوادي والأرياف، وهو انتشار كنت أشرتُ إلى التحدّيات التي وضع الجبهة الإسلاميّة أمامها وأنّها لم تكن تمتلك موارد وأدوات التحكّم فيه وتأطيره وترشيده بالشكل المناسب للصراع الذي كانت تخوضه يومئذ، وأنّه ما زال يحتاج دراسة وتحليلا ومقاربات أكثر حياديّة وإنصافا بعيدا عن اتّهام الشعب بالجهل والسطحية أو اتّهام خطاب الجبهة بالغوغائية أو اعتبار هذا الانتشار والالتفاف الشعبي الرهيب حول الجبهة مجرّد سلوك عقابيّ ضدّ تصرّفات وظلم مؤسسات الحزب الواحد : جبهة التحرير الوطنيّ.

ولقد فاجأ هذا الانتشار حتى مؤسسي الجبهة وقياداتها، ووجدوا صعوبة كبيرة في التعامل معه، ولكن هذه ملحوظات منفكّة عن رصد الظاهرة نفسها ولا تؤثّر في صحّتها ومصداقيتها التي يقرّ بها أشدّ أعداء الجبهة الإسلاميّة ضراوة وحقدا.

وهذا الانتشار لم يكن نخبويّا أبدا، بل كان أبعد ما يكون عن ذلك، واحتضن خطاب الجبهة وأطروحاتها السياسيّة طيف واسع من الشباب والطلبة والنّساء وعامّة الشعب والفلّاحين وسكان الرّيف والأساتذة والمثقفين، ولم يكن هؤلاء كلّهم على موجة واحدة من جميع ما يطرحه خطاب الجبهة، فقد كان فيهم المندفع المشتعل حماسة وفيه المتأنّي الملاحظ وفيهم المتحفّظ والرافض لبعض ما يقال ويُفعَل والناقد الجريء وعلى جميع المستويات من أدناها على المستوى البلدي إلى أعلاها على مستوى المكتب الوطني وجلس الشورى.

إلّا أنّ الذي كان يجمع هؤلاء جميعا ويصهرهم هو انبعاث الروح الإسلامية والشعور بالعزّة وتلمّس اقتراب عهد التحرّر واسترجاع الكرامة والأمل في نهضة شاملة تكون الجزائر قاطرتها وهو أيضا ذلك الإجماع حول مطلب تحكيم الشريعة وإقامة الدولة الإسلاميّة الذي كان غامضا كما اشرنا في الجزأين السابقين حتى عند قيادات الجبهة، ولم يكن مطلوبا من الجماهير وهي تعبّر عن تأييدها والتفافها حول مشروع الجبهة أن تدخل في نقاشات فكريّة وفقهية واجتهادات سياسيّة حول شكل الدولة الإسلاميّة أو طرق إنفاذ أحكام الشريعة فإنما يُطلب منها تكثير السواد والنّصرة والتصويت في الانتخابات والدعم المادّي والاجتماعيّ وهو ما قدّمته الجماهير بصدق وعطاء منقطع النّظير.

صحيح أنّ الحركة الإسلاميّة بمختلف توجّهاتها كانت قد هيّأت النفوس والعقول لتقبّل خطاب الجبهة أو أيّ خطاب آخر يستمدّ من الإسلام، وصحيح أن هناك أسبابا أخرى لم يكن للجبهة يد في توفيرها لحدوث هذا الانتشار والالتفاف والقبول، ولكن الذي يهمّ هنا هو أنّ الجبهة كانت الأسبق والأقدر على استثمار هذا المُعْطى، وأنّها لم تتردّد في الذهاب به بعيدا والاستفادة منه وأنّ غيرها لم يستطع ذلك، فالجبهة في النّهاية حزب سياسيّ يهدف إلى اكتساح الساحة والفوز والوصول إلى السلطة وكل الوسائل المشروعة سبيل إلى ذلك، وليس من المعقول ولا المقبول أن تترك الجبهة الجماهير بحجّة أن الجماعة الفلانيّة والتيّار العلّاني هو من قام بتوعيتها وتقريبها من المشروع الإسلامي وليست الجبهة هي من فعلت ذلك.

رابعا :

استطاعت الجبهة بنجاح كبير صناعة رموز سياسيّة ودعويّة، اكتسحت الساحة برغم بساطة وسائل الإعلام آنذاك وأصبح هؤلاء الرموز موضع اهتمام الإعلاميين في الداخل وتتهافت عليهم وسائل الإعلام الأجنبيّة من فضائيات وصحف عالميّة ويقدّمون التصريحات المؤثّرة وتشتغل بتصريحاتهم وحواراتهم الأحزاب ودوائر السلطة .

ولم يكن هؤلاء الرموز على المستوى الوطني فحسب، بل كان في كل ولاية رموزها الذين يخطبون ويسوّقون لخطاب الجبهة وتتأثّر بهم الجماهير وتتعلّق بهم .

ولم يكن كلّ أولئك من صناعة الجبهة، فبعضهم كان يمتلك حضورا وكاريزما في منطقته قبل تأسيس الجبهة ولكنّ قوة خطاب الجبهة ووضوحه زاد من تألّقه وحضوره وأعطاه دفعة أقوى في التأثير، وبعضهم - خاصّة من أبناء الصحوة الإسلاميّة - كان يمتلك كفاءة الخطابة والأداء السياسيّ والذكاء الاجتماعيّ والقدرة على التأثير على نطاق واسع ولكن محدوديّة العمل الإسلاميّ واقتصاره على الحلقات ودروس الوعظ وانكفاءه على نفسه قبل أحداث أكتوبر 1988 التعدّدية السياسيّة لم يتح لهم الفرصة المناسبة فكان انخراطهم لاحقا في الجبهة اكتشافا لهم وتدريبا وصقلا لمهاراتهم وإضافة لرصيد الجبهة.

كانت صناعة الرموز التي تتعلّق بها الجماهير وتتفاعل معها وتثق بها دائما نقطة ضعف عند كثير من الحركات الإسلامية وقلّما نجحت في ذلك لأنّ الذي يبرز الرموز ويسوّقها في الغالب ويظهر أثرها وذكاءها هو الإعلام وقد كان يومئذ كلّه في يد اليساريين وفلول المخابرات العسكرية. وهو ما يسوقنا إلى النقطة التالية.

خامسا :

لم يكن الجزائريّون يعرفون إعلاما نهاية الثمانينيات إلا الإعلام الرسميّ متمثّلا في التلفزيون والصحف الحكوميّة، وبعض العناوين الجديدة مثل الخبر بالعربيّة El Watan و Le martin و Liberte بالفرنسية . ولم تكن الفضائيات العربية يومئذ موجودة ما عدا قناة الأمبيسي التي لم تكن بالصيت والشهرة والتأثير الذي اكتسبته لاحقا، وكان بعض الجزائريّين يلتقطون بصعوبة القنوات الفضائية الفرنسية عن طريق الصحون اللاقطة الجماعيّة.

وفي ظلّ ذلك نجحت الجبهة الإسلاميّة في صناعة إعلام موازٍ وقويّ ومؤثّر تمثّل في أشرطة وتسجيلات الفيديو. فقد كانت توثّق لكلّ صغيرة وكبيرة من أنشطتها، ولا يحدث تجمّع أو مسيرة في أيّ مدينة كبرة أو ولاية داخليّة إلا تمّ تصويرها كاملة واستنساخ العشرات بل المئات منها وتوزيعها بيعا أو إهداء عبر كافّة مكاتب وفروع الجبهة عبر الوطن، وكان المواطنون يتجمّعون في مقرّات الجبهة والمصلّيات الحرّة والساحات العامّة والمتاجر التابعة لأعضاء الجبهة وحتى في البيوت حيث تجتمع النساء ليتابعوا في حماسة مشاهد المسيرات وخطابات قيادات الجبهة في التجمّعات.

كما كانت سوق الكاسيت رائجة، حيث كانت خطب الجمعة خاصّة وبعض التجمعات الوطنيّة الكبرى تُسَجّل وتنسخ ليتناقلها الأعضاء والمحبّون ويتمّ من خلالها نقل وتسويق خطاب الجبهة وأهدافها.

وحين نتحدّث عن الفيديو أو الكاسيت فإنّ أيقونتهما كان الشيخ علي بن حاج، الذي عرف فيه الجزائريّون خطيبا وخطابا من نوع جديد لم يألفوه من قبل في المساجد ولا في الشأن السياسيّ، متمكّنا من أساليب الخطابة والإلقاء، جريئا مستحضرا للآيات والأحاديث، يحسن التعبير بالفصحى والعامّيّة، ويستخدم النّكتة ويزاوج بين خطاب الرحمة واللّين والدعوة والرّفق وخطاب الشدّة والعزّة والحزم والسياسة. لقد كان الشيخ علي بن حاج نموذجا متفرّدا يستحقّ الدراسة والتحليل وما زال، وكان كثير من الخطباء ورموز الجبهة الإسلامية الشباب يحاولون تقليده أو محاكاة أسلوبه فمنهم من ينجح ومنهم من لا يستطيع، ولكنّ الشيخ كان بلا منازع نجم الفيديو والكاسيت وكانت خطاباته تنفخ الروح في مئات الآلاف من انصار الجبهة ومحبّيها كما تخيف وترعب أعداءها وخصومها.



لقد استطاعت الجبهة الإسلامية بهذا الإعلام الموازي الذي كانت تسنده بقوّة وفعالية الجرائد الورقيّة مثل المنقذ والبلاغ وغيرهما أن تتجاوز الحصار المفروض عليها من طرف السلطة ومؤسساتها الإعلاميّة ومن طرف الإعلام الخاصّ الذي كان أكثره واقعا تحت هيمنة وتسلّط اليسار وفلول المخابرات، بل إن الجبهة استطاعت أن تكون بمواقفها ومن خلال إعلامها هي من يصنع الحدث ويبادر إلى الفعل ليسارع الآخرون إلى المتابعة وردّات الفعل، حتّى وإن كان الأمر ليس بهذا الإطلاق والتعميم. كما استطاعت الجبهة أن تحصّن أنصارها بشكل كبير من شبهات وتشكيك الإعلام المعادي لها، فمهما كانت قوّة الجريدة والصورة الثابتة فيها فإنّ مقاطع الفيديو الحيّة كانت أقوى وأشدّ منها تأثيرا بكثير، وكان هذا الأمر يغيظ أعداء الجبهة حتّى أنّ واحدا من أهداف المخابرات والعسكر وأجهزة الأمن بعد الانقلاب كان الحصول على هذه التسجيلات وتدميرها وإتلافها كلّية واعتبارها دليل إدانة وتورّط في الإرهاب مما دفع آلافا من أنصار الجبهة وعائلاتهم لإتلافها وبذلك ضاعت ثروة من الأرشيف والأحداث والوقائع لا تُقدّر بثمن، وبعضها ما زال مدفونا ليوم النّاس هذا لا يدري أحد هل تلف أم لا يزال صالحا وبعضه نسي من دفنه أين خبّأه، وإن كان موقع يوتيوب قد حفظ بعض هذه المادّة التي أجزم يقينا ويجزم كلّ من عايش الأحداث أنّها لا تتجاوز 02% من المادّة المسجّلة خلال ثلاث سنوات.

سادسا :

في مجتمع محافظ مثل المجتمع الجزائريّ لم يكن من السهل على المرأة أن يكون لها حضور بارز ومؤثّر ما عدا في الدوائر الرسميّة والمؤسسات التابعة للسلطة أو الجمعيّات التي يهيمن عليها اليساريّون، وقد كان أهمّ تجمّع نسويّ في الجزائر هو (الاتّحاد العامّ للنساء الجزائريّات) وكان اتّحادا بروتوكوليّا يتمّ إخراجه من الخزنة كلّما احتاجه النظام في مناسبات محدّدة وكانت سمعته سيّئة ولم يكن له أيّ تأثير. في مثل هذه البيئة استطاعت الجبهة الإسلاميّة أن تفسح للنساء الجزائريّات مساحة من العمل والفعاليّة والظهور والحضور أكبر من أيّ حزب إسلاميّ أو غير إسلاميّ يومها.

كان في كلّ مكتب بلدي وولائيّ فرع نسائيّ، وكانت هذه الفروع نشطة وفعّالة، ينخرط فيها عشرات أو مئات من النساء بحسب الكثافة السكّانية للحيّ أو المدينة، وكانت النّساء يشاركن في المسيرات ويحضرن التجمّعات يرافقن أزواجهنّ وأولادهنّ وإخوانهنّ في احترام كامل لهنّ.

وكانت درّة تاج المشاركة النسويّة هي الدور الذي قامت به الجبهة في التجنيد والحشد للمسيرة النسائيّة التي دعت إليها رابطة الدعوة الإسلاميّة برئاسة الشيخ أحمد سحنون رحمه الله بتاريخ الخميس 23 جمادى الأولي 1410هـ الموافق لـ 21 ديسمبر 1989 ، فقد وقع عبء التجنيد والحشد وضمان حضور نسويّ يكون رسالة قويّة جدّا ومؤثّرة إلى النظام والعلمانيّين المطالبين بتغيير قانون الاسرة والأحوال الشخصية واقعا على الجبهة الإسلاميّة، التي استطاعت عبر مكاتبها في الولايات حشد أكثر من نصف الحاضرات من كلّ الوطن وكنت شاهدا أن قافلة من الحافلات من ولاية تيارت وحدها كان فيها أكثر من 11 حافلة فضلا عن قوافل أخرى من الولاية نفسها وهي البعيدة عن العاصمة ب300 كلم.

وكان من أثر انفتاح الجبهة على الحضور النسائي وانتباهها لخطورته أن أعضاءها ومنخرطيها حتى في البلديات النائية والأرياف وهم المتشدّدون في كلّ ما يتعلّق بالمرأة اقتنعوا بإخراج نسائهم وبناتهم وأخواتهم للتصويت في الانتخابات البلدية والولائية والتشريعيّة بقوّة رجّحت كفّة الجبهة وأعطتها أفضليّة، بينما كان هؤلاء يستنكفون حتى من سفر نسائهم إلى المدن والحواضر.

وكان السرّ وراء ذلك بسيطا جدّا، فقد اقتنع هؤلاء أنّ في خروج نسائهم للتصويت نصرة للدّين ومراغمة للفاسدين والمجرمين فهان عليهم ما كان مرّا وعسيرا من قبل.

وقد لجأت السلطة قبل التشريعيّات في قانون الانتخابات إلى رفض وكالة الرّجل عن أكثر من امرأة حتى تحرم النساء المتعاطفات مع الجبهة من التصويت لظنّها أنّهن لن يخرجن للتصويت في المناطق الداخلية التي كانت تشكّل الوعاء الانتخابيّ الأثقل، ولأنّ المشاركة في الانتخابات كانت تتطلّب استصدار بطاقة الهويّة المرفقة بصورة المرأة التي ظنّ النظام ومخابره يومها أنّ أكثر النساء وأولياءهنّ سيرفضنه سبب حساسيتهنّ من تصوير الرجال للنساء ومن الإجراءات الإداريّة التي تقتضي تدخّل الرجال في الصالح الإداريّة، ولكنّ الجبهة خاصة في التشريعيات استطاعت تجنيد عدد كبير جدّا من النّساء المصوّرات لتصوير النساء في بيوتهن في القرى والمداشر والأرياف وإعداد الملفّات الإداريّة وسرعة استخراجها حتى بدون حضور المرأة المعنيّة ببطاقة الهويّة، وهو أمر لم يكن يتوقّعه أعداء الجبهة وخيّاطو القوانين والتشريعات أبدا.

وكان من آثار الانخراط النسويّ الكبير في الجبهة أن انتشرت مظاهر الحجاب والجلباب والاستقامة في الشارع الجزائريّ، حتى أصبح التبرّج منحصرا في بعض الجامعات وأحياء المدن الكبرى المعروفة بميولها التغريبيّة، ولم يكن في الأمر إكراه ولا إلزام ولم تكن الجبهة تمتلك أصلا أدوات الإكراه والإلزام الماديّ، وإنّما كان أمرا هيّأه الله للمسلمات في الجزائر أراد به صلاحهنّ وخيرهنّ.

وللحديث بقيّة ..

مسألة الشرعية لدى حركة المقاومة

محمد إلهامي



"في الأدبيات الغربية المهتمة بالحركات الإسلامية تفريق واضح بين «التمرد» و«الإرهاب»، وليس التفريق طبعا بغرض الدقة العلمية أو بغرض الحقوق القانونية، بل بغرض فهم وإنتاج السياسة المناسبة للتعامل مع الخصم بما يفضي في النهاية لهزيمته وكسره.



أبرز الفوارق بين «التمرد» و «الإرهاب» أن التمرد مدعوم بتأييد شعبي كبير، فالتمرد يكون ضد حكومة لا تحظى بالشرعية لدى السكان بينما الإرهاب عكس هذا، فهو عمل مجموعة صغيرة ضد حكومة مستقرة الشرعية، ولذلك لا يحظى بتأييد الغالبية من السكان. التمرد يستهدف النظام والسلطة بينما الإرهاب يستهدف المدنيين. التمرد يحاول أن يجتذب إليه قوات الجيش والشرطة بينما الإرهاب في العموم لا يفعل. وبطبيعة الحال فكل «إرهاب» يحاول أن يصل إلى مرحلة «التمرد».. ساعتها يكون قد نجح في نزع شرعية النظام وفي الحصول على دعم جماهيري واسع.

ولذلك فتوصيات الدراسات الأمنية الغربية تفرق بين الأمرين لأنها تسعى إلى معالجة الحالة بما يناسبها فلا تزداد تفاقما، ولا تزال أغلب الدراسات الغربية الجادة التي تنشر ما يحدث في مصر تصف الوضع فيها بأنه "تمرد" لا "إرهاب"، بما في ذلك الدراسات التي تتناول الوضع في سيناء. وحين أصدرت "راند" تقريرها في 2008 (كيف تنتهي المجموعات الإرهابية) كانت تعتمد هذا التوصيف. وكان غرضها أن تحاول التعامل مع حالة تنظيم القاعدة بعدما ثبت خطأ السياسة الأمريكية في التعامل معها ضمن "مكافحة الإرهاب".

خلص تقرير راند إلى نتائج تفرق بين التعامل مع "التمرد" والتعامل مع "الإرهـاب"، فالحركات "الإرهابية" ينتهي أغلبها (43%) بالتسوية السياسية بينها وبين الحكومة حيث يجري احتواؤها ضمن عملية سياسية انتقالية. ثم ينتهي (40%) منها بالاختراق الأمني المخابراتي المعلوماتي الذي يؤدي إلى اكتشاف قياداتها ومفاصلها الرئيسية ومن ثم اغتيالها أو اعتقالها، وهو مجهود لا يصلح للقيام به الأجهزة الأجنبية بل يُلقى على عاتق الأجهزة المحلية الأكثر معرفة بالبيئة الداخلية. ثم ينتهي (10%) منها بتحقق أهدافها، و(7% فقط) بهزيمتها عسكريا. وهذا ما يعطي التوصية بأن المكافحة العسكرية هي أقل الوسائل نجاحا في القضاء على المجموعات "الإرهابية"، فيما يتعاظم العمل حول "الإصلاح السياسي" ثم "العمل الأمني الاستخباري".

ولاحظ واضعو التقرير أيضا نتائج أخرى من أهمها :

1. أن التنظيمات الدينية هي الأطول عمرا.
2. أن التنظيمات الكبيرة أقدر على الصمود والبقاء والانتصار من التنظيمات الصغرى
3. التنظيمات التي اشتركت في "تمرد" لا تنتهي بسهولة.

وتلك النتائج الثلاثة الأخيرة نستخلص منها أمورا في غاية الأهمية والخطورة، وهي على الترتيب:

1. أهمية الدين وأنه أقوى وأرسخ من سائر الأيديولوجيات النضالية، فما من حركة كفاح إلا واعتنقت فكرة، ومع هذا فقد كانت الحركات الدينية أطول نفسا وأقوى صمودا.
2. أهيمة الإعداد وضرورته، فالحركة التي تستطيع أن تكتسب أفرادا أكثر تعبر عن قدرة استيعابية وتشغيلية، ومن ثم ينعكس هذا على نتائج المعركة.
3. القدرة على تثوير الناس والمجتمع والانضمام إلى لحظتهم الثورية يمثل انتقالة فارقة في تاريخ أي حركة.

اللافت للنظر في تقرير راند هذا أن الحركة التي تهدف إلى تحقيق الخلافة الإسلامية لا يمكن التفاهم معها عبر التسوية السياسية (النتيجة الأكثر فعالية في القضاء على الحركات "الإرهابية")، ومن ثم فلا بد من تفعيل وتوسيع وتعظيم النشاط الأمني الاستخباري، ثم النشاط العسكري الذي ينبغي -كما يوصي التقرير- أن يُعهد به للجيوش المحلية لا للجيش الأمريكي.

هذه المقدمة الطويلة أحاول أن أدخل منها إلى معنييْن على وجه التحديد، أحدهما يتعلق بكوني واحدا من أبناء الثورة المصرية والحركة الإسلامية المصرية، والثاني يتعلق بكوني باحثا في التاريخ والحضارة الإسلامية. وهذا مع أن الفائدة الكبرى في هذه الأمور إنما تكون للمهتمين والباحثين في الشؤون الأمنية والعسكرية.

أولا: موقع الشرعية في السياسة :

يصر النظام المصري على أنه يواجه "الإرهاب" لا على أنه يواجه "التمرد"، فالتمرد يطعن في شرعية النظام مباشرة، وقد حاول النظام القديم منذ أوائل عهد الرئيس مرسي أن يرفع شعار "سقطت شرعيتك يا مرسي"، وأن يبني لنفسه شرعية بكل الوسائل، ليس فقط بمشهد المظاهرات المصنوعة والمحشودة، بل أيضا بمشهد الانقلاب الذي جمع الرموز المتنوعة بمن فيهم الفئة التي لا يطيقها النظام "السلفيون"، ثم بمشهد الاستفتاء على دستور الانقلاب حيث لا بد أن يصوت عليه أكثر ممن صوتوا على استفتاء دستور الثورة، ثم بمشهد انتخابات الرئاسة الذي يحوز فيه السيسي 97% من الأصوات، وهي محاولة لتسويق وجود "إجماع شعبي" و"شرعية كاملة". وإلى الآن تتناثر في خطابات السيسي وقيادات العسكر التأكيدات على أنه لم يخن ولم يغدر ولم ينقلب وإنما اضطروا للتدخل كي لا تضيع مصر!

والواقع أن سائر من يعارضون الانقلاب (الانقلاب نفسه كنظام لا السيسي كشخص) ليس بيدهم ورقة شرعية ولا قانونية ولا حتى أخلاقية سوى شرعية الرئيس مرسي، وهذا بغض النظر الآن عن مسألة القدرة أو الإرادة في استثمار هذه الورقة وتفعيلها. فالتخلي والتنازل عن هذه الورقة هو نفسه تثبيت لشرعية الانقلاب ولشرعية أي انقلاب.

وأخطر ما تتعرض له الثورة المصرية في لحظتها الحالية هو إيجاد قبول عام بالاستسلام للنظام، ولمؤسساته، والقبول بأي عرض يرجع الحال به إلى ما قبل 2011 . صحيح ربما نتفهم أن العجز قد بلغ بالبعض أن يقنعوا بهذا (وهنا يجب ألا ننسى أنه عجز صنعوه بأيديهم بل هم كافحوا وحاربوا بكل طاقتهم كل من أرادوا كسر العجز وتفعيل المقاومة)، لكن يجب ألا ينسينا هذا أننا نبيع الثورة ونعترف بفشلها ونسلم بانتصار الانقلاب.

وبالمناسبة، فنفس الوضع الذي يتم على المستوى المحلي يتم أيضا على المستوى الدولي، فعندما تضطرب الأمور في بلد ما، ينزل إليها دائما هذا الكائن البغيض المسمى "المبعوث الدولي"، هذا الكائن له مهمة وحيدة، وهي هدم الشرعيات وتصفير الأوضاع، يدعو دائما لحوار بين كل الأطراف بلا شروط مسبقة. وهكذا يمثل الصغير كالكبير وتُمسح مكاسب الشعب السابقة لحساب صناعة اضطراب جديد، ثم لا يصل حواره أبدا إلى حل، بل يظل يكسب الوقت حتى تعمل الآلة الدولية على دعم عميلها بالمال والسلاح ليسيطر على الأرض. عندها يسافر الكائن البغيض مرة أخرى معلنا فشل "الحوار الوطني".. للأسف!

لقد كتبنا كثيرا جدا في معنى الشرعية من قبل [1] ، والجديد هنا أننا نشير لكون معنى الشرعية ليس مجرد معنى سياسي يختص السياسيون به، بل هو داخل في صميم العمل الثوري المقاوم، فلا بد للحركة المقاومة من نشر أفكارها ومفاهيمها التي تؤصل وتبين شرعية عملها وغاياتها، فالعنف الصامت -كما تقول الفيلسوفة اليهودية الألمانية حنة أرندت- عمل حيواني، وإنما يتميز الإنسان بما يضفيه عليها من المعنى الشرعى.

وحيث نتحدث في بلادنا عن حركات المقاومة الإسلامية، ففي أمتنا العربية والإسلامية، اختفت وذابت الحركات غير الإسلامية ولم يبق سوى الحركات الإسلامية. أقول: حيث نتحدث عن حركات تستمد حركتها من الإسلام فإن الإسلام يوفر أساسا راسخا ومتينا في مسألة الشرعية، وهو أساس ضارب في كتب الفقه ويحتفظ بقداسته من نصوص القرآن والسنة، وهذا ما يجعل نشره بين الناس أسهل كثيرا كما يوفر له من أهل البسالة والتضحية أفواجا وأمواجا وأمدادا في كل حين.

فالنظام الشرعي في الإسلام هو النظام الذي يطبق الشريعة..

هذه العبارة البسيطة لو استطاعت الحركات المقاومة أن تنشرها وتغرسها بين الناس لوفرت على نفسها جدالات هائلة ومجهودات رهيبة في تكوين وبناء شرعيتها.. وهذه العبارة البسيطة يُستدل لها من القرآن والسنة وعمل السلف الصالح وسيرة العلماء وجهاد المجاهدين بمادة غزيرة لا تنفد.. فإن تاريخ الإسلام كله هو تاريخ إسقاط الأنظمة غير الشرعية لإقامة النظام الشرعي.

وهنا تلتقي خلاصة التوصيات الغربية والجهادية معا.. فبقدر ما تنتهي الدراسات الأمنية الغربية إلى توسيع الفجوة بين الحركة الجهادية وبين الأمة، تنتهي التوصيات الجهادية إلى جسر وردم الفجوة بين الحركة الجهادية والأمة [2].

ثانيا: شرعية النظام في التاريخ الإسلامي

وهنا أدخل إلى المعنى الثاني المتعلق بالتاريخ الإسلامي. وسأوجزه كثيرا..

ما دلت عليه الشريعة وسنة الخلفاء الراشدين أن النظام الشرعي في الإسلام يتوفر بناء على ركنين: تطبيق الشريعة واختيار الأمة للأمير.. وهذا مذكور في أول خطبة لأبي بكر "وليت عليكم ولست بخيركم... أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم".

---

(1) راجع هذه المقالات :

الشرعية ركيزة الثورة - VhjdYX/lg.oog//:sptth

سياسة هدم الشرعيات - XxDF1t/lg.oog//:sptth

الشرعية والعصبية - p1QMW1/lg.oog//:sptth

(2) انظر مثلا : SZn4cF/lg.oog//:sptth

والخلافة الراشدة هي الخلافة التي تحقق فيها الركنان: تطبيق الشريعة واختيار الأمة للأمير. فما إن تحولت الخلافة إلى الملك حتى فقدت صفة "الراشدة".

السؤال هنا : لماذا قبل المسلمون، انتقال الخلافة إلى الملك في لحظة تولي يزيد؟ ثم لماذا قبل العلماء فيما بعد بولاية المتغلب وجعلوا التغلب من طرق حصول الخلافة؟

الإجابة بإيجاز وتبسيط شديد :

هو أن ذلك كان في لحظة اضطرار، في لحظة الاضطرار هذه حصل ما نسميه في لفظنا المعاصر "التضحية برأس النظام للحفاظ على النظام نفسه"، نفس المبدأ الذي استعمله الأعداء ضدنا في الثورات المضادة حين تخلوا عن زين العابدين ومبارك والقذافي وصالح ليبقى النظام. وقد سوومت الثورة السورية في بدايتها -كما روى رياض الأسعد- نفس المساومة: أن يرحل بشار مقابل الحفاظ على الأجهزة الأمنية والعسكرية. فلما رفض رياض الأسعد قيل له: إذن ستطول الحرب.

هذا المبدأ كانت نتيجته: القبول بمن لم تختره الأمة اختيارا حرا طالما أنه سيقيم الشريعة ويحفظ الثغور وينشر الأمن ويحمي بيضة الدين. ومع هذا فقد بقيت كتب السياسة الشرعية تؤكد أن هذا اضطرار وأن الأصل هو بقاء ركني الشرعية معا "تطبيق الشريعة والاختيار الحر للأمير"، ومما ترتب على هذا أن الخارج على المتغلب ليس خارجا على إمام شرعي، ولا يأخذ حكم الخوارج الذين خرجوا على علي، وأن هذا المتغلب الجديد إن استقر له الأمر فقد تغلب ولم يُسْعَ في استعادة السابق لأنه لا شرعية له، بخلاف الإمام الشرعي الذي يُقاتل معه ويُسْعي في استنقاذه إن أُسِر وإعادته للإمامة، ومن آثار هذا أيضا أنهم لا يبايعون للمتغلب إلا إن استقر تغلبه وصار في حكم الواقع، وصارت بيعتهم في حكم تحصيل الحاصل. ثم مع هذا كانت حركة العلماء والمصلحين والثوار لإعادة الأمر إلى نصابه ومقاومة ما عليه هؤلاء من الانحرافات.

لكن الشاهد الذي يهمنا في مقامنا الآن هو أن مسألة الشرعية في الإسلام تتعلق أول ما تتعلق بتطبيق الشريعة، فهذا هو جوهر النظام وأصله وأساسه، بغض النظر عن القائم عليه وطريقه وصوله للإمامه.. فهذا القبول الاضطراري بالمتغلب وبالتوريث لم يقابله تهاون في مسألة الشريعة نفسها، بل العلماء يتفقون على أن الحاكم إن كفر فإنه ينعزل عن الإمامة ويُقام عليه، فإن كان ثمة عجز سُعِي في الإعداد للقيام عليه. فالتهاون كان في شأن الشخص لا في شأن الشريعة التي هي النظام.

تفكيك أدوات السلطة (1)

د. عمرو عادل

"الصراع على السلطة على مدى التاريخ كان المحرك الأكبر للصراع ليس فقط على مستوي النظام الحاكم ولكن في مستويات أدنى من ذلك بكثير"

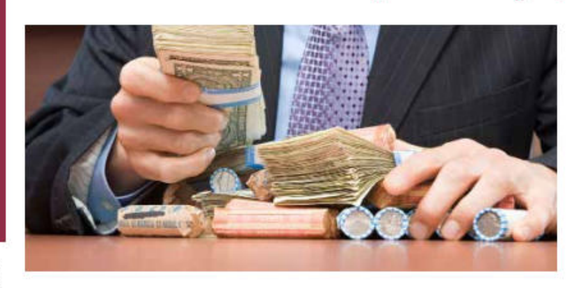
والسلطـــة فــي النظام السياسي لها تعريفات متعددة ولكنها تدور حول الحق في احتكار القوة لضبط المسارات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للمجتمع، وأكد الباحثون والمنظرون بل وأحداث التاريخ حتمية وجود سلطة ما؛ ولكن السلطة في النظام الحديث وخاصة الاستبدادي قامت باحتكارات واسعة مما حول الضبط إلى حالة من إعادة هيكلة كل المجتمعات طبقا لما تراه السلطة صحيحا سواء كان ذلك متسقا مع إرادة المجتمع أم لا.

ففـي مصـر علــى سبيل المثال، يمكن القول إن تنظيم السلطات داخل الدولة متوافق مع النموذج الحداثي، إلا أن طبيعة الانتقال غير الطبيعي من نظام قديم مختلف إلى النظام الحديث؛ ربط هذا النموذج بالاستبداد ربما بشكل حتمي، وهذا الاستبداد مع طول الزمن ورسوخه حَوَّل السلطة السياسية في مصر - ليس فقط إلى الاستبداد- ولكن إلى معاداة الشعب أيضا، وتحولت السلطة إلى عدو مباشر يعلن احتقاره وانفصاله عن الشعب دون خجل. إن الاختباء خلف الأسوار العالية في المنتجعات وعدم الظهور تماما في الشوارع بين الناس والابتعاد عن لغة وثقافة المجتمع السائدة هي واحدة من مظاهر انفصال السلطة، كما أن استخدام كافة أدوات القوة ضد الشعب واستخدام الحوار وأدوات العمل السياسي مع الخارج - كما ذكر جمال حمدان -هي أحد أهم مقدمات العداء مع الشعب.

إذا فالسلطة في مصر يمكن توصيفها بشكل مختلف على أنها استخدام كافة أدوات القوة ضد الشعب للسيطرة على مقدراته وتغيير لمساراته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وهذا عداء معلن وبالتالي يجب كسر هذا النمط من فكرة السلطة في مصر، وإذا كان الشعب أو جزء منه يريد التحرر من هذا العداء فمن الواجب معرفة الأدوات التي يستخدمها العدو ومحاولة تفكيكها بكل الطرق المناسبة، والجانب الآخر هو التمسك بكل ثوابته الاجتماعية والثقافية ضد محاولات السلطة لتغييرها.

ولذلك يمكن حصر أدوات القوة للنظام في النقاط الآتية:

1. السيطرة على الثروة
2. القوة المسلحة
3. السيطرة على تدفق المعلومات
4. حق المراقبة للمجتمع
5. قوة القانون
6. حق العقاب



وفي الدول الحديثة المستقرة - حتى لو مرحليا - يوجد هناك قدر من التوازن في هذه الأدوات فلا يتحول النظام إلى نظام معادٍ لشعبه، أما في حالة مصر؛ وهي نموذج لعداء السلطة السياسية للشعب؛ فتحتكر السلطة كل شيء بل وتعتبر أي محاولة للتواجد داخل تلك المساحات هو إعلان حرب عليها، ولذلك فإن تفكيك تلك الأدوات هو أحد مسارات محاولات التحرر من تلك السلطة.

هناك الكثير من العقبات التي تواجه فكرة تفكيك أدوات السلطة في مصر ويمكن إجمالها في محورين رئيسيين:

1. عقبات نتيجة لسيطرة النظام شبه الكاملة على كل الأدوات مما يحول المجتمع إلى سجن كبير.

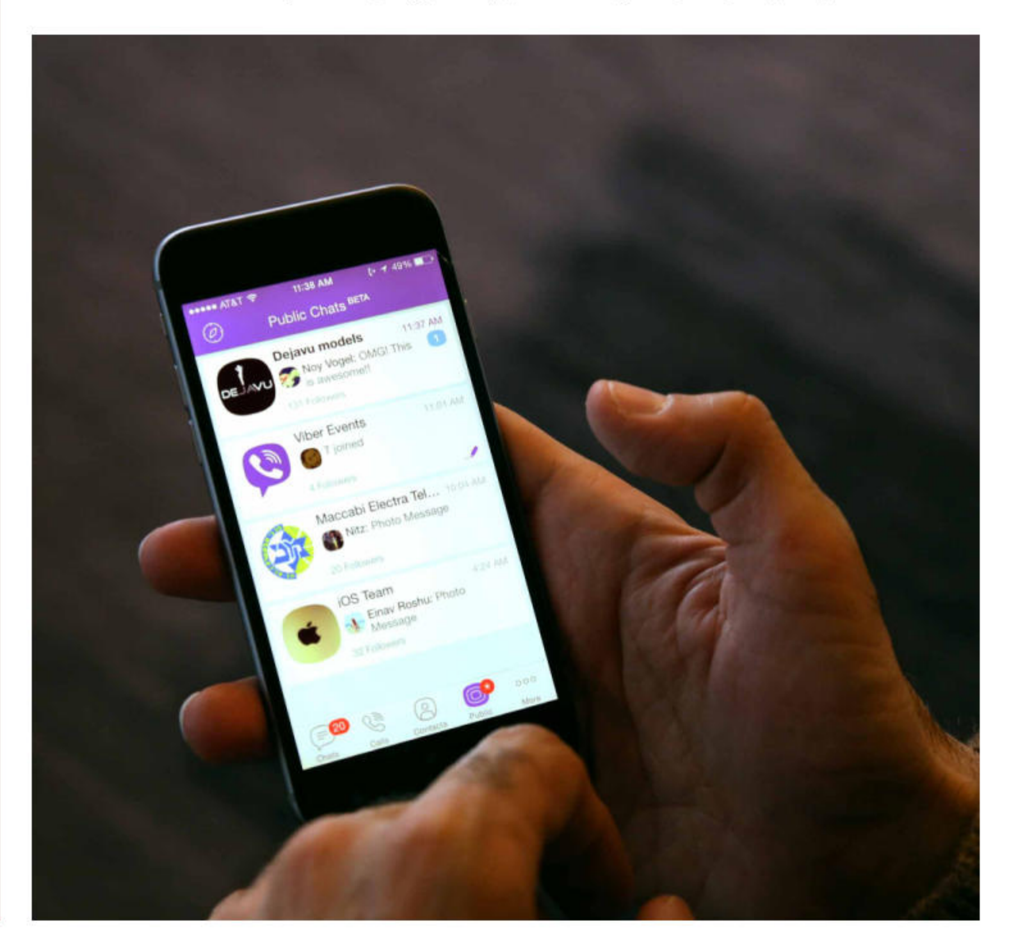
2. عقبات نتيجة الإيمان بأن السلطة ضرورية حتى لو كانت معادية للشعب أكبر من الإيمان بفكرة ضرورة تفتيتها أو فكرة العدالة. وغالب هذا القطاع لا زال يطمح في إمكانية إعادة بناء سلطة حديثة من داخل النظام، قد يكون ذلك ممكنا في حالة اقتصار المشكلة على استبداد السلطة فقط، أما إذا وصلت تلك السلطة إلى حالة العداء مع المجتمع؛ فيكون ذلك مستحيلا ومن الضروري بل والواجب التحرك في مسار تفتيت تلك السلطة تماما.

وهذا التفكيك يحتاج إلى قوى تؤمن بأن نشر فكرة التمرد على السلطة ورفض كافة إجراءاتها وما تفرضه على المجتمع وتحجيم قدراتها مسار حتمي، ونتناول في الجزء الباقي أحد تلك الأدوات وربما أخطرها على محاولات المقاومة وهي حق مراقبة المجتمع.
وتستخدم السلطة حقها - غير المفهوم السبب - لمعرفة كل تفاصيل السكان - وذلك عن طريق المؤسسات والأجهزة الأمنية وشبكات الجواسيس المنتشرة جغرافيا في كل مصر، وكل هذه الأدوات لا تستخدم إلا في سبيل مراقبة العدو الذي تخشاه السلطة وليس للمعرفة مع تحفظنا على صحة ذلك الفرض.

ومن الضروري أن نعرف أن تقليل حجم المعلومات التي تصل للنظام مهما كانت بسيطة تقلل من سيطرة النظام وبالتالي تساهم في عملية التفتيت وهي عملية طويلة ومركبة، ولذلك بالنسبة للمعلومات التي يحصل عليها النظام فيجب تقليلها إلى الحد الأدنى وعدم التطوع لمده بمعلومات سواء في أي إحصاءات أو استبيانات أو إمداده بمعلومات يمكن إخفاؤها، وبالنسبة للمؤسسات الأمنية فهذا يحتاج لمرحلة متقدمة من الصراع ليس هذا مجالها الآن.

والملف الأخطر في قدرة النظام على اختراق المجتمع ومعرفة كافة تفاصيله وبالتالي منع أي محاولة بناء منظومة مقاومة أو تحرر هو الجواسيس المنتشرة جغرافيا ويمكن تقسيمها إلى:

1 **جاسوس تكنولوجي** وهي الأجهزة الذكية التي نحملها معنا؛ وهي أحد أهم الأدوات الحديثة للمتابعة والمراقبة، وهي خطيرة للغاية على كل من يرغب في بناء منظومات المقاومة من حيث استخدامها في التواصل أو بناء شبكات مجتمعية مقاومة وخاصة للمعروفين للأجهزة الأمنية، لذلك يجب تخفيض أو منع استخدامها حيث يمكن عن طريقها تدمير الكثير من المحاولات.



2 الجاسوس البشري وهي شبكة معقدة من الأفراد المنتشرين في كل مكان ويرتبطون بشكل مباشر أو غير مباشر بالأجهزة الأمنية.

إن هذه الشبكة من الجواسيس البشرية تعتبر عين السلطة المعادية سواء كانت سلطة احتلال أو سلطة استبداد معادٍ، ويتناسب حجم هذه الشبكة طرديا مع حجم انعزال الطبقة الحاكمة عن الشعب، فكلما زاد انعزالها ثقافيا وماديا عن المجتمع؛ لجأت إلى شبكات أكثر قوة وتعقيدا لمعرفة ماذا يدور في الشارع وماذا يخطط الشارع ضدهم، وعدم وجود هذه الشبكة أو على الأقل إضعافها يضعف قدرة النظام على كشف المجتمع ويصيبها بالعمى والتوتر، لأن وسائل معرفتهم بالمجتمع انعدمت تقريبا مع ابتعادهم عن المجتمع عدا هذه الوسيلة.



وتجربة المقاومة الأيرلندية لها سبق عظيم في هذا المجال، حيث استمرت عقود طويلة في مقاومة نمطية جيش نظامي أمام جيش نظامي مع فارق كبير في القوى لم يؤد إلى أي نجاح، حتى ظهر مايكل كولنز وغير من أساليب العمل، ولكن الفعل الأكبر والأكثر تأثيرا هو القضاء الحاسم على شبكات الجواسيس العاملين مع قوات الاحتلال الإنجليزي، ولم تستطع المقاومة تحقيق نجاحات إلا بعد تفتيت تلك الشبكة.

إن الجيوش النظامية والنظم الهرمية ثقيلة الحركة بشكل يمنع قدرتها على التحرك المرن أو التغيير السريع في أفكارها وتحركاتها عكس المجموعات الصغيرة غير المترابطة تنظيميا، وغياب شبكة الجواسيس التي تمدهم بالمعلومات مع وجود حركة مقاومة داخل المجتمع في نفس الوقت تجعل من حركة قوى النظام داخل المجتمع أشبه بتحرك فاقد البصر الذي يحمل أثقالا في متاهة مليئة بالمرايا العاكسة والكمائن المتتالية، مما يؤدي في النهاية إلى سحقهم أو انسحابهم تقليلا لخسائرهم، وذلك يؤدي إلى وجود أماكن آمنة للمجتمع وقوى المقاومة.

تلك الخطوة التي فعلها مايكل كولنز كانت أحد الخطوات الكبرى في طريق تفتيت سلطة العدو والتحرك بحرية داخل المجتمع وإخراج سلطة العدو منه، وهذا تطور كبير جدا في مسار التمرد على النظام نحتاج للاستفادة منه.

الخلاصة،

أن حق النظام في مراقبة المجتمع أحد أكبر أدوات القوة التي يمتلكها، بالتالي يصبح منع أو تقليل هذه القدرة من أدوات تفتيت سلطة النظام، وتقليل التعامل مع الأدوات التكنولوجية الحديثة في التواصل وبناء شبكات المقاومة أو التعامل معها بشكل احترافي - هذه تحتاج للكثير من التفاصيل ليس هذا مجالها -أحد تلك الأدوات، كما أن تفتيت شبكات الجواسيس التابعين للنظام أحد أهم تلك المحاور، ولا يمكن بناء عمل مقاوم دون ذلك.

وللحديث بقية..

دفتر حال الجهادية

يسرا جلال



"لا أحسب أني سأتمكن قريبًا من العودة إلى مصر ... على الأقل في الوقت الحالي ...
علينا أن نختبيء قليلًا حتى يهدأ البحث عنا ثم نبدأ في التحرك من هنا ...
لكن على أية حال نجوت بحياتي ."

لم أعد أحتمل غصص القهر والهوان في عسكر أفندينا. يسوقوننا كالعبيد لنحقق أحلام أفندينا. أي جهاد هذا؟ يرمون بنا في البحار والفيافي لتكون كلمة محمد علي باشا العليا؟ حاولت التظلم مرارًا ولكن اليوزباشي أجبرني على الرقاد وضربني أربع ضربات بالخيزرانة، ماهياتنا (عطايانا) متأخرة منذ أكثر من خمسة عشر شهرًا، والطعام يصلنا -حين يصلنا- سيئاً تعافه النفوس "فالخبز الذي كان يقدم للجنود كثيرًا ما كان عفنًا أو مخبوزًا بطريقة سيئة.. غير صالح للأكل وأسود اللون" [1]، قد أصبر على الجوع ولكنني لا أصبر على الذل والمهانة.

حين هبط ضباط فصيلة التجنيد على قريتنا اصطحبوا معهم شيخًا أخذ يكرر أن الخدمة في عسكر أفندينا جهاد ودفاع عن الدين؛ فالباشا سيحارب اليونان الكفرة الذين يريدون خلع ربقة الطاعة عن الباب العالي .. كان الشيخ يرفع صوته الخالي من الصدق في الوقت الذي انتشر فيه الضباط في القرية ليتمكنوا من "إلقاء القبض على أكبر عدد يمكن العثور عليه من الرجال" [2].

أوقفوا الرجال في صفوف وربطوا كل ستة أنفار بحبال حول أعناقهم ووضعوا أيدينا في إطار خشبي محكم..غطى صوت عويل النساء وبكاء الأطفال على صوت الشيخ.. تحجرت الدموع في مقلتيّ .. لن أبكي كالنساء.. ولكن الوجوم والقهر علا وجوه الرجال جميعًا.. تحركت القافلة من قريتنا في موكب طويل تألف من رجال الباشا في زيهم الفاقع اللون ومعهم الرايات والطبول وطابور طويل من الفلاحين الحفاة منكسو الرؤوس، يفكر كل منهم في أسرة كبيرة تركها دون عائل وأرض ستبور حين تفتقد صاحبها.. تركت زوجتي تحمل في أحشائها جنينًا لم أره عمره الآن عشر سنوات لا أعلم إن كان صبيًا أم فتاة .. أسميته (رضا) وحرصت أن أحكي له كل ليلة حكاية قبل النوم.. مرة أحكي عن الزيبق ومرة أحكي عن أبي زيد الهلالي.. سبق خبر قدوم فصيلة التجنيد إلى قريتنا وصولنا إلى القرية المجاورة، تَسَحب السكان جميعًا (فروا).. كانت القرية خاوية على عروشها، " ترك السكان خلفهم قرًى حزينة مدفونة في صمتها.. لا تزال منازل سكانها الفقراء قائمة " [3]. أصبحت خرابًا بعد أن كانت عامرة بسكانها.. ظن هؤلاء المتسحبون أنهم نجوا بأنفسهم ولكن هيهات ؛ فمشايخ القرى مسؤولون عن التحري عن هؤلاء المتسحبين والإمساك بهم، وحتى إذا هربوا إلى القاهرة فمشايخ الحارات سيتولون مهمة إعادة الغرباء إلى قراهم.



كـــان معنـا في موكبنا البائس رجال من قرية بعيدة، جميعهم مشوهون .. وكأن روحًا شريرة ابتلعتهم. كان بعضهم بعين واحدة وبعضهم يحمل في يده اليمنى أربعة أصابع وآخرون تبدو وجوههم مرعبة بعد أن فقدوا أسنانهم الأمامية.. تحاملت على مخاوفي وسألت أحدهم: "هل تعرضتم لسحر أسود؟" فأجابني بلثغة نتجت عن فراغ فمه من الأسنان: "كلا، اتفق أهل القرية على تشويه أنفسهم". نعرف أننا لن نتمكن من الفرار من النظام الجديد (التجنيد)، سيلاحقون المتسحبين حتى لو ذهبوا وراء الشمس، فكرنا في تقديم أنفسنا بضاعة مزجاة يزهد فيها الباشا. فقأ بَعضُنَا عينه، وقطع آخرون أصابعهم، تناولت حجرًا كبيرًا وضربت به فكي.. أردت كسر أسناني حتى أصبح غير قادر على تعمير البندقية.. رحت في غيبوبة لم تطل كثيرًا.. ثم أفقت لأجدني مربوطًا في الحبال مع باقي الرجال. وعلى مدخل قريتنا تدلت جثة امرأة بدينة؛ شنقها رجال الباشا بعد أن علموا أنها ساعدت أبناءها في تشويه أنفسهم وتركوها لتكون عبرة لباقي الحريم. رغم ذلك طمع فينا الباشا واقتادنا رجاله.. يقولون إننا سنعمل في كهرجال في القاهرة عند الروضة" (الكهرجال : معمل البارود). لم نملك من أمر نفسنا شيئًا، ليس بأيدينا سوى الانصياع للأوامر والتحرك مع القافلة جنوبًا نحو أسوان، أما مجموعة المشوهين فانفصلوا شمالًا نحو القاهرة..

وفي أسوان بعيدًا.. بعيدًاعن الدسائس والأنظار التي يحسب لها أفندينا ألف حساب.. بعيدًا عن مصادر اللهو في المدينة.. كان القشلاق فسيحًا ولكنه ضاق علينا بما رحب.. غرقنا في طوفان من الأوامر التي لا نعي لها سببًا ..

سجلوا أسماءنا في دفاتر ضخمة، وأعطونا أرقامًا ثم كتبوا أسماءنا على ظهر الفرش التي وزعوها علينا وفجأة تدفق طوفان الأوامر بحق: "يلزم أن تكون جربندية كل نفر مقفولة ومربوطة على وجه يمكن حملها به عند الحاجة.. وأن تكون برانس الأنفار مطوية على الوجه المتقن وموضوعة على الرف المذكور، وكذلك ألبستهم تكون مطوية على ظاهرها بأن تكون بطانتها من خارج" [(4)]. إيش معنى؟ لا أدري.. ثم إن علينا غسل ملابسنا كل خميس وحلاقة رؤوسنا كل أسبوع والتدريب مرتين في اليوم وكان الأومباشي يأخذ التمام ثلاث مرات يوميًا عند الشروق وعند الظهر وبعد الغروب.



تمام الشروق كان يكلفنا الكثير علينا أن نقف (انتباه) حيث "ينبغي لكل عسكري أن تكون كعباه قريبين من بعضهما على خط وبدنه مثل العمود.. وأن يكون مائلًا إلى قدام قليلًا ورؤوس أكتافه مائلة إلى وراء.. وكوعه قريب من بدنه وكفه مدور قليلًا إلى الخارج وخنصريه يكونان على قيطان جيب السروال"[5]. و..و..و.. أوامر بلا نهاية كما يبدو أن بقاءنا هنا لا نهاية له، فبعد أن أخبرونا أننا سنعود بعد سنوات ثلاث لم نعد. ما الفارق إذن بين الجهادية والسخرة؟ ثيران تدور مغماة في ساقية.. مجرد رقم في دفتر وأورطة (فرقة عسكرية)..

كانت أول مهامنا الجهادية في اليونان، اشتعل تمرد ضد الباب العالي.. يبدو أن أهلها أرادوا محاكاة الفرنسيس في ثورتهم. أخبرنا الأومباشي أنهم يريدون إحياء إمبراطوريتهم البيزنطية.. وأن دورنا محدد: الدفاع عن الإسلام، ذكر أن اليونان لو نجحوا في تمردهم ضد السلطان سيحكم النصارى بلادنا.. غلى الدم في عروقي.. ونسيت كل ضيق انتابني منذ هبط ضباط فصيلة التجنيد على قريتنا.. يريدون للكفر أن يحكم أرض السلطان؟ يريدون الاستيلاء على الآستانة وإسكات أصوات المآذن؟ كلا والله ما دام فيّ عرق ينبض!

كنت في الأورطة التي توجهت إلى جزيت (جزيرة كريت) تحت قيادة حسن باشا.. رغم أن تدريبنا لم يتضمن القتال في البحر إلا إننا نجحنا بفضل من الله في إخماد التمرد في جزيت. وبقينا هناك لفترة ننتظر الأوامر، حيث توجهت حملة أكبر من حملتنا لإخماد التمرد في المورة وتمكنوا من اقتحام جميع ثغور المدينة وسقطت (ميسولونجي) آخر معاقل التمرد في يد عسكر أفندينا. حينها انقض محور الشر على الأسطول العثماني وحاصرت روسيا وبريطانيا وفرنسا الأسطول المصري في ناڤارين.. ثم انقطعت بِنَا السبل.. لم آبه لأصوات المدافع والبوارج التي كان البحر يردد صداها مع أمواجه العالية.. ولكن الحصار أقلق الباشا على أسطوله، خاصة بعد تهديد الدول المحاصِرة باقتحام مصر.
لم أكن أريد العودة إلى مصر كان علينا استكمال القتال ليعرف هؤلاء أن وراء السلطان رجالًا لا يهابون الموت، ولكن في الجهادية عليك الالتزام بأوامر القائد. كنت أتمنى أن أترك لك أثرًا طيبًا يجعلك تفخر بأبيك يا (رضا)..



وقبل أن يصل الأسطول إلى الإسكندرية أمرنا بالانضمام إلى قوات جيش أفندينا المتجهة نحو عكا.. لماذا عكا؟ لا نعرف لذلك سببًا، كل ما وصلنا أن هناك خلافًا بين الباشا وبين والي عكا. لم تلق الأورطة التي كنت فيها مقاومة تذكر على طول ساحل فلسطين، وكنت أسأل نفسي دائمًا لماذا نحن هنا؟ نحارب المسلمين؟ لسنا هنا لقتال الكفرة بل لقتال عسكر السلطان،رلماذا يريدون منا أن ننجح فيما فشل فيه عسكر نابليون؟ الحق أننا هنا لنحقق رغبات الباشا.. لنرسم أحلام الباشا في توسيع ملكه على أراضي سوريا.. مالنا وحلم الباشا؟ ماذا سأجني حين تؤول إيالة دمشق إلى الباشا؟

طالت فترة حصارنا لعكا، ستة أشهر كاملة ونحن لا نراوح الخندق. لا أريد أن أموت وأنا أقاتل المسلمين، لا أريد أن أتحول إلى اسم يمسحونه من الدفاتر مثل (محمد عطا) وغيره من العساكر الذين قضوا نحبهم بعد أن أصيبوا بالملاريا هنا في عكا، ثم دفنوهم من غير صلاة وكان همهم الأكبر شطب أسمائهم من دفتر الماهيات، كان الخندق كالقبر تنطلق القذائف نحوه فيضج الجميع، وحين يهدأ الصوت يبدأ أحدهم في البكاء بصوت عال ثم يفقد الوعي ويهذي فيسب الباشا، وحين يفيق يجد الخيزرانة في انتظاره فالذعر لا يليق بالرجال، وكانت العقوبة المفضلة أن يأمر الأومباشي العساكر بالبصق على العسكري المذعور.
يجب أن تعلم يا (رضا) أن الرجال قد يخافوا ولكنهم لا يهانوا..



اتفقت مع رجال من أورطتي على الهرب، انتظرنا لحظة الذعر اليومية وانشغال الجميع بالقذائف ثم ركضنا خارج الخندق واختبأنا خلف صخور الشاطيء، كان البرد قارسًا وأمواج البحر عالية.

شعرنا انهم لن يبحثوا عنا ثانية فسرنا جنوبًا، لا أعرف كم يومًا سرنا حتى عثر علينا مركب صيد أخبرنا صاحبه أننا في حيفا كما أخبرنا أن الحصار على عكا انتهى وأن إبراهيم باشا أنهى حصارها ودخلها عنوة وأسر واليها وسيرسله إلى مصر. ركبنا مع الصياد حتى غزة وهناك تركنا وعاد أدراجه بينما سرنا نحو مصر.

قريبًا نلتقي يا (رضا)، لا تخف لن أعود للخدمة في عسكر الباشا فقد اكتفى جيشه من المشوهين، لن يفيده عسكري بلا ذراع.. ستكون أنت ذراعي لنزرع أرضنا قمحًا يا (رضا)..



---

(1) خالد فهمي، كل رجال الباشا، دار الشروق، ص442.

(2) السابق، ص139.

(3) السابق، ص141.

(4) ص 196.

(5) ص 207.

سلسلة كتب مختصرة (الكتاب الرابع)

مذكرات الحاج محمد أمين الحسيني (1)



نبذة مختصرة عن حياته

ولد السيد محمد أمين الحسيني عام 1897م، وتلقى تعليمه الأولي في فلسطين

ثم التحق بالجامع الأزهر الشريف، وكان يحضر في كلية الأداب وفي الحرب العالمية الأولى تخرج ضابطًا في الجيش العثماني والتحق بالفرقة 46, ولما انتهت الحرب عاد إلى فلسطين ليستقبل عهدًا جديدًا من الكفاح لتحرير فلسطين، وعمل بصورة خاصة على مقاومة الانتداب البريطاني (وعد بلفور) ليقود الحركة الوطنية الفلسطينية.



نشبت ثورة القدس الأولى عام 1920 التي قادها سماحته, وتشكلت محكمة بريطانية لمحاكمة المشاركين في الثورة، وصدر عليه حكم غيابي بالسجن 10 سنين، لكنه تمكن من الفرار من المستعمرين، وانتقل إلى سوريا في بداية عهدها بالاستقلال.

ولما احتل الفرنسيون سورية وقضوا على استقلالها ذهب إلى صحراء سورية، وعاش فيها، وحين تم إلغاء الحكم الصادر بحقه عاد إلى فلسطين، وتولى دار الإفتاء خلفًا لشقيقه عام 1921، وانتخب عام 1922 رئيسًا للمجلس الشرعي والإسلامي الأعلى، فأصلح إداراتها، وحرص على منع أراضي فلسطين من التسرب للصهاينة، وبادر إلى عمارة المسجد الأقصى وتجديده.

وفي عام 1930 شارك في الوفد الفلسطيني الذاهب إلى لندن لمفاوضة الحكومة البريطانية بشأن فلسطين وتحقيق مطالب الشعب.

وكان سماحته يعمل جاهدًا لإخراج قضية فلسطين من الحيز المحلي الضيق إلى نطاق العالمين العربي والإسلامي ونجح إلى حد كبير في ذلك.وفي سبيل ذلك دعا سماحته إلى عقد المؤتمر الإسلامي العام في القدس عام 1931 الذي حضره مندوبون من كافة الأقطار الإسلاميه للنظر فيما يحاك لفلسطين من مطامع اليهود الدينية والسياسية، وهدفهم إلى تحويل فلسطين إلى دولة يهودية

ولما نشبت ثورة فلسطين عام 1929 حاول اليهود رشوته بنصف مليون جنيه؛ ليفرط لهم في حقوق ليست لهم في مكان البراق الشريف، ولما رفض طالب اليهود بمحاكمته، واعتبروه مسئولاً عن الثورات المتعاقبة.

وفي عام 1934 حاول سماحته وقف الحرب بين السعودية واليمن، وتكللت جهوده بالنجاح وحقنت الدماء.

وفي عام 1936 انتخب سماحته بإجماع أحزاب فلسطين لرئاسة اللجنة العليا التي أدارت دفة الثورة في البلاد، وانتهت بتدخل ملوك العرب وأمرائهم كما هو معروف بنداء وجهوه لوقف الثورة، واعدين إياه بأن تعمل بريطانيا على إنصاف العرب، وقد استمرت الثورة 6 أشهر.



ولكن ما حدث هو ما قامت به بريطانيا بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود، فتجددت الثورة عام 1937، وحاولت القبض على سماحته لكنه تمكن مـن النجـاة وهرب إلى لبنـان..

وبعد نشوب الحرب العالمية الثانية ضغطت بريطانيا على فرنسا لتسليمهـا سماحـتـه، ولكنه كان قد غادر لبنان سرًّا وذهب إلى بغداد، ولما أوشك الإنجليـز أن يحتلوا العـــراق اضطر سماحته للخروج إلـى إيـران، ولمـا احتـلـت القـوات البريطانية والروسية إيران أعلنـت بريطانيا مكافاة عشرون ألف جنيهًا استرلينـي لمن يرشد عليه.

لكن الله سهل لسماحته الهروب إلى أوروبا بعـد أن رفضـت تركيـا قبولـــه لاجئًـا سياسيًا مماﻷة للإنجليز، وتمكن من الحصول من دول المحور على اعتـراف باستقـلال فلسطيـــن. وبعـد انهيـار ألمانيـا تمكنـت السلطـات الفرنسيـة مــن اعتقـاله.

وحاولت المنظمات الصهيونية تقديم سماحته إلى محـكمـة نورمبـرغ؛بتهمـة تحريـض ألمانيا على إبادة اليهود، ومساعدة مسلمي البوسنــة عــلـى المقاومة للـــدفاع عن أنفسهم من العصابات الصربية.

ولقد فشلت مساعــي الصهيونييــن واليوغسلافييــن ضـد سماحته بسبــب استنـكـار المسلمين والرأي العام الإسلامي...

وأخيرًا تمكن سماحته من الخروج من فرنسا سرًّا إلى مصر عــام 1946، وكـــان هبوطه فـــي مصر حـــدثًا مـدويًـا فــي العالــم العربــي والإسلامــي والخارجـي .

وسارعت السلطات البريطانية تطالب باعتقـال سماحتــه, ولكــن السلطـــات المصرية أكرمـت وفادته، وسرعان ما التف حوله رجالات فلسطين.

وشرع سماحته في تنظيم الفلسطينيين واستئنـاف الجـهـاد، وقـام بتأليـــف جيش الجهـاد المقدس، وانتصر الفلسطينيون فـــي أغلــب المعــارك التـي دارت بينهم وبين اليهود، رغـم قلة وسائل الكفاح، مقارنة بما يملكه اليهود.

الفصل الأول

الهجره من فلسطين

لم تكن الهجرة من فلسطين ضمن خطتي؛ لاعتقادي أن مكافحة الأعداء من الداخل أولى وأجدى، وأنه لا يجوز لمجاهد أن يهجر وطنه إلا مضطرًا أو مرغمًا لأمر هو في صالح القضية التي يجاهد من أجلها.

وكنت قد أزمعت السفر إلى أوربا، وأعددت لذلك، فلما ظهرت بوادر الشر المبيتة من اليهود قبيل حادثة البراق، شعرت بخطورة الموقف، وبضرورة بقائي فعدلت عن السفر.

وانجلت المعركة عن نصر عظيم للعرب، وقامت لجنة برلمانية من بريطانيا بزيارة فلسطين للوقوف على أسباب الثورة، وحاول محامو اليهود أن يحملوني وز الدماء المهراقة, وأني حاولت الخروج من فلسطين لأخلص من أوزارهم، فكان جوابي أني كنت على وشك السفر، وبقيت، وحتى لو كنت سافرت لسارعت بالعوده إلى البلاد؛ لأواجه عدوانكم، ولأتحمل المسئولية كاملة.

وحينما قلت هذا القول لم أكن أظن أني سأضطر لهجرة موطني بعد ثمانية أعوام, أي بعد عام من نشوب ثورة 1936, تلك الثورة التي رافقها الإضراب الفلسطيني العظيم، الذي تم وقفه نتيجة تدخل ملوك العرب، وقيامهم بالوساطة لدى بريطانيا؛ لإقناعها بإنصاف العرب الفلسطينيين.

وأوفدت بريطانيا لجنة ملكية برياسة اللورد بيل إلى فلسطين للتحقيق في أسباب هذه الثورة, وتقديم توصياتها بشأن حل دائم للمشكلة, وكانت اللجنة العربية وعرب فلسطين يميلون إلى مقاطعة اللجنة، لكنهم لم يسعهم بعد استشارة الملوك والرؤساء العرب إلا النزول على رأيهم والاتصال بهم.



وفي 23 حزيران 1937 قدمت اللجنة الملكية تقريرهـــا إلى ملك بريطانيـــا، ثم تواتـرت الشائعات عن استكمال اللجنة لتقريرها ونصيحة الحكومة البريطانية بتقسيـم فلسطيـن.

خلال هذه الفترة سافرت إلى المملكة العربية السعودية بصحبة وفـد لمقابلـة المـلك عبد العزيز آل سعود، ولبسط قضية فلسطين وشرح ظلامتها لحجاج بيت الله.

بعد ذلك سافر الوفد إلى سوريا وقابلنا رئيس الجمهورية هاشم الأتاسي، ولم نمكـــث هناك طويلاً؛ إذ وصلتنا أخبار مقلقة عن فلسطين تشير إلى أن بريطانيا قد ركبـت رأسـها، وأنهـــا ستشرع في اتخاذ وسائل الشدة والعنف، وستقمع بالقوة كل حركة وطنية، وأنهـــا شارعـــة في اعتقال المجاهدين الفلسطينيين.

بادرنا بالعودة إلى فلسطين لمجابهة هذا العدوان الاستعماري، وقد قام الإنجليـز معـنا بكل وسائل المساومة لوقف النضال، ولما فشلوا في التأثير علينا بالإغـراء والوعـد، عمـــدوا إلـــى التهديد والوعيد، وأرسلت لي رسالة شفوية تهددني بالقتل.

ولما يئسوا من جدوى الوعيد والتهديد عـزمـوا علـى اتخـاذ خطـة جديـدة مـن العنـف والبطش، ونشرت الجرائـد البريطـانية واليهـوديـة أن المـفتـي هـو العقبـة الكـؤود فـــي سبيـــل كـــــل حل للمشكلة وأي تفاهم مع اليهـــود، ويجب علـــى الحكـــومة أن تصفيـــه وتعزلـــه من رياســـــة المجلس الإسلامي الأعلى، وأن تبطش به وبالفريق المتصلب العنيد من المتطرفين -على حد قولهم.

فـاجأتنا السلطة الـبريطانيـة بـاقتحام دار اللجنـــة العربية العليـا فـي القـــدس فـــي 17 يوليـــو 1937، لكن تمكنت من الفرار منهم، وتوجهت نحـو ساحـــة المسجـــد الأقصـــى المبـــارك، ولما كان المسجد يضم في ذلك الوقت عددًا من المجاهدين ومعهـم البنـــادق والمدافع الرشاشة والقنابل اليدوية فقد اضطرت السلطة البريطانية إلى وضع حراسة على أبواب المسجـــــد الأقصى وحول أسوار المدينة القديمة لمنعي من النجاة.

دام الحصار لحوالي ثلاثة أشهر، ثم جاءت بريطانيا بقـــوة عسكـــرية مـن مسلمي الهند قاصدة أن تقتحم أبواب المسجد للقبض علي وعلى المجاهدين، حينها قـــررت المخاطرة ومحاولـة اختراق الحصار والخروج إلى أحد الأقطار العربية، حيث تتوفر لي حـــريـــة العمـــل، ومتابعــــة حركة التحرر والجهاد.

وصلت لبنان عن طريق التهريب لكن ألقي القبض عليّ، وتعرف علـيّ مساعــد مديـر الأمــن الفرنسي، وحاول المندوب السامي الفرنسي الكونت دو مارتيل نقلي إلى باريـس، لكــن قامت مظاهرات عربية في بيروت أدت إلى بقائي في لبنان، وبقيت هناك لمـدة عاميــن تحت إشراف البوليس حتى نشبت الحرب العالمية الثانية.

أبلغني الكولونيل الفرنسي بأن المندوب السامي لا يرغمنا على الإقامة هنا، ويسمـح لنـا بالخروج والإقامة في لبنان تحت إشراف إدارة الأمن العام، لكنهـم لـم يسمحـوا لـي بالسفر إلى سوريا، ولا على الإقامة في بيروت أو طرابلس.

أقمت في قرية (ذوق مكايل) من منطقة كسروان، واستأجـرت هنــاك دارًا، وشــرع الإخـوة العاملون معنا يفدون علينا ويستأجرون الدور المجـاورة لدارنـا بالتدريـج حتــى أصبحــت المنطقة أشبه بحي خاص بنا، مما ساعدنا كثيرًا على تحقيق أغراضنا، والاجتماع سرًا مـع قادة المجاهدين وكبار رجال الحركة الوطنية لفلسطين والأقطار العربية.

استمرت نار الثورة في فلسطين مشتعلة عامين كاملين مـن أكتـوبر عــام 1937 إلــى أكتــوبر 1939، وقد كان هتلر زعيم ألمانيا النازية معجبًا أشــد الإعجاب لكفــاح عــرب فلسطيــن وبسالتهم التي بهرته.



وقد بالغت السلطات البريطانية في اتخاذ وسائل البطش والإرهاب لقمع الثورة، وحشدت في فلسطين على التوالي أربع فرق عسكرية جديدة، أي: ما يعادل 50 ألف جندي, ليبلغ إجمالي الجنود القامعين للثورة حوالي 70 ألفًا.

انعقد في مصر المؤتمر البرلماني الذي دعا له محمد علي علوبة باشا، وشهده ممثلون للأقطار العربية والإسلامية، وأبدوا جمعهم تأييدهم لفلسطين ورفض الانتداب, كما أبدت الحكومة المصرية برئاسة محمد محمود باشا مظاهر اهتمام بالغة بقضية فلسطين.

حاول اليهود دس الدسائس والمؤمرات وإثارة الفتن بين العرب وإثارة النعرات الطائفية بين المسلمين، وقد أخبرني حينها ضابط فلسطيني يعمل في المخابرات البريطانية أن الإنجليز جندوا عددًا من المجرمين وسلحوهم وأمروهم بالهجوم على القرى المسيحية وقتل أفرداها, وأخبرني الضابط أنه سلّح بعض المجموعات بنفسه.

سرعان ما اتخذت قيادة الثورة الوسائل الضرورية لمكافحة هذه العصابات المجرمة وإخماد نار الفتنة, وتم القضاء على المجرمين وتشكيل محكمة عسكرية وطنية لمحاكمتهم.

نجحت الثورة في القضاء على مشروع التقسيم، وأدنت العرب من تحقيق آمالهم, وأصدرت الحكومة البريطانية بيانًا أشارت فيه إلى أنها ستدعو إلى عقد مؤتمر في لندن تحضره الحكومات العربية وممثلون عن العرب واليهود للوصول إلى حل ملائم لقضية فلسطين.

تألف الوفد وسافر وعقد المؤتمر في أوائل عام 1939لكنه فشل بسبب تعنت الإنجليز وتدخل حكومة الولايات المتحدة الأمريكية لصالح اليهود, وأصدرت بريطانيا الكتاب الأبيض الذي اشتمل على تشكيل حكومة فلسطينية مستقلة خلال 10 سنوات بشرط موافقة العرب واليهود على تشكيلها، وأن يسمح لآخر مرة بدخول 75 ألف مهاجر يهودي إلى فلسطين خلال خمس سنوات.

رفضت اللجنة العربية بنود الكتاب، وكذلك رفضه اليهود, وظلت الثورة مستمرة بعد صدور الكتاب بضعة أشهر.

الكتاب الأصلي من إعداد: عبد الكريم العمر، الناشر: الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى 1999م، عدد الصفحات: 546

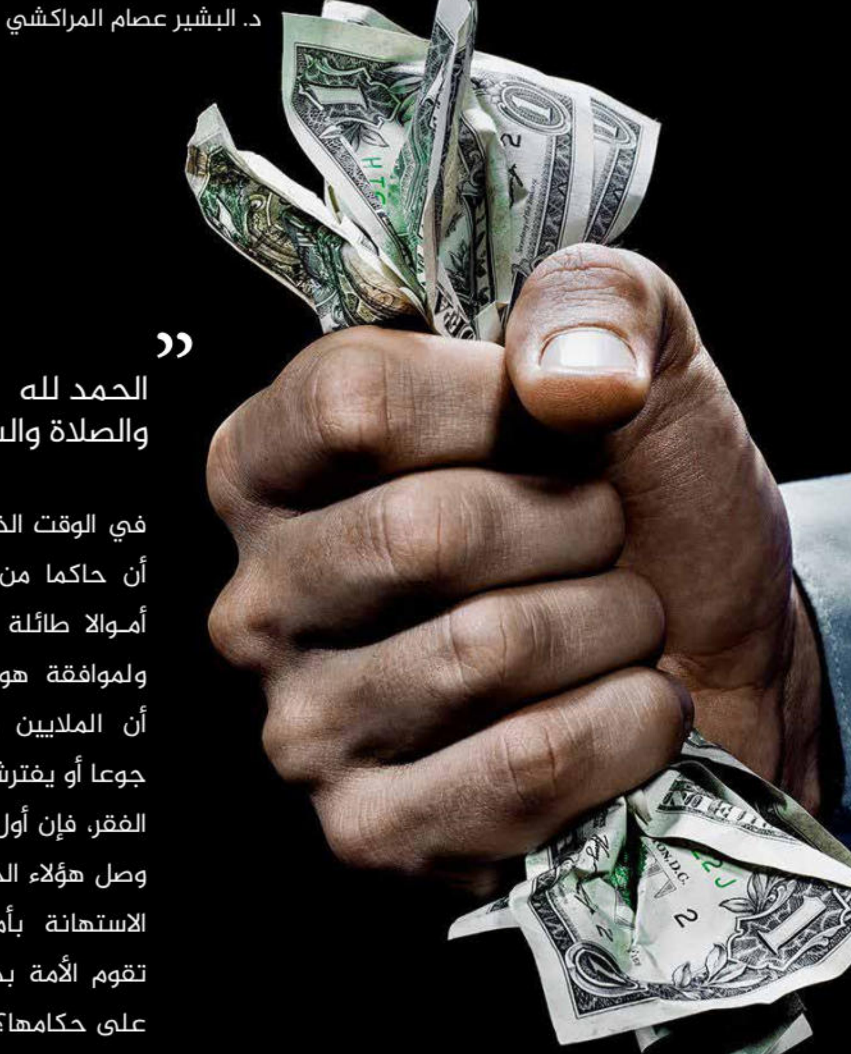
وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا

سورة الفرقان الآية (52)



التصور الإسلامي للعلاقة بين الحاكم والمحكوم الرقابة المالية للأمة على الحاكم (3)

د. البشير عصام المراكشي



الحمد لله
والصلاة والسلام على رسول الله

في الوقت الذي نسمع فيه هنا وهناك أن حاكما من حكام المسلمين، ينفق أموالا طائلة على شهواته الشخصية ولموافقة هوى الكِبر والخيلاء، والحال أن الملايين من المسلمين يتضورون جوعا أو يفترشون العراء أو يكابدون آلام الفقر، فإن أول ما يخطر ببالنا هو: كيف وصل هؤلاء الحكام إلى هذه الدرجة من الاستهانة بأموال المسلمين؟ ولم لا تقوم الأمة بدورها في الرقابة المالية على حكامها؟

من البدهي الذي كاد أن يُنسى: أن هذه الأموال التي تَصرفها طائفةُ مخصوصة من الناس في ما لا يرضي الله تعالى، على وفق أهوائهم ونزواتهم، ليست ملكا لهم، وإنما هي أموال المسلمين، اقتُطعت منهم ظلما وبغيا

إن من المقطوع به أن الرقابة المالية على أصحاب السلطة السياسية، لمنعهم من التصرف التبذيري أو الاستئثاري به، من أهم مداخل الإصلاح التي فرطت الأمة فيها منذ زمن، ولم يعد بالإمكان الاستمرار في التفريط فيها. وذلك لأن ضغط الثقافة العلمانية الغربية المهيمنة اليوم، يفرض على الناس الكلام في الموضوع، وإعادة النظر في كثير من المسلمات فيه.

والمؤسف أن الكثيرين حين يرون هذا التسلط من الحكام على أموال المسلمين، يفزعون إلى صور العدالة المالية عند الغربيين .

ونحن لا نشك أن حال الغربيين اليوم في هذا المجال أفضل بكثير من حالنا .. ولكن لا نشك أيضا أن الأفضل من الاثنين معا، هو التصور الإسلامي السامي في هذا الموضوع؛ وهو التصور الذي طمسه اجتماع تصرفات الحكام الظلمة، مع تسويغات "أحبار السوء" الجهلة، المستندين في ضلالهم إلى قواعد إجمالية متعلقة بما يندرج تحت عنوانَي الفتنة والطاعة، مع تناسي قواعد السياسة الشرعية الأخرى، والتي سيأتي بيان بعضها في هذا المقال

تنبيه لابد منه

حين تمر أمام أعين المسلمين صورُ هذا التبذير والاستهانة بالمال العام، تخطر ببال الكثيرين سيرةُ الخلفاء الراشدين في حفظهم لأموال الأمة، وزهدهم فيه ولكن المشكلة التي تحتاج إلى بيان وتوضيح: أن هذه السيرة تخطر كما تخطر الحكايات التي يتناقلها الوعاظ والقصاص، صعبةً مثالية لا ارتباط لها بواقع الناس اليوم، فوق كونها مناقضة لهدي السنة النبوية في التوسط والاعتدال (مثل قصص العُبّاد الذي يصلّون الفجر بوضوء العشاء أربعين سنة) أو يبكون من خشية الله حتى تتلف أعينهم، أو نحو ذلكولذلك، نحتاج أن نوضح أن منهج الخلفاء الراشدين في مجال تدبير المال العام، ليس محالا في ذاته، ولا مخالفا للسنة البيضاء - كاجتهادات هؤلاء المغالين من العُباد والزهاد - بل هو منهج إسلامي واقعي، طُبّق فعلا على أرض الواقع، وأمر المسلمون - في كل عصر - بالاقتداء به كما في حديث: اقتدوا باللذَين من بعدي"، وحديث: "فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي،عضوا عليها بالنواجذ"

إن فِعل الخلفاء الراشدين الأربعة (ومعهم عمر بن عبد العزيز الذي أُلحق بهم في سيرته بإجماع العلماء، وإن لم يكن منهم)، ليس كتصرفات من جاء بعدهم؛ فإن هؤلاء لا يمتنع أن يسلكوا طرقا في الدين تخالف المنهج الإسلامي الصحيح، وإن كانوا معذورين باجتهادهم. أما أولئك الراشدون المهديون، ففيهم تمثلَ هذا المنهج الإسلامي، إذ شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم على الحق، وجعلهم قدوة للمسلمين .

وإذا ثبت وجوب الاقتداء بهم، فلا يمكن أن نقتدي بهم في الطهارة والصلاة، فإذا جاء ذكر سيرتهم في السياسة الشرعية، قلنا - كما يزعم بعضهم -: ذاك جيل رباني مخصوص، وظروف متميزة، ونحن جيل آخر، له ظروفه الخاصة به؟

فما معنى أن يكون الإسلام صالحا لكل زمان ومكان، إذا نحن حصرنا هذه الصلاحية في العبادات الفردية؟ أليست هذه خطوة أولى نحو العلمانية، كما وقع للنصرانية منذ أصولها الأولى حين جعلت ما لقيصر لقيصر وما لله لله، فتفرّد قيصر - ومن تبعه من الملوك - بسياسة الدنيا على أصول أهل الدنيا، وتُركت سياسة أرواح الناس وقلوبهم للكنيسة؟

نعم .. لست أنازع في أن جيل الصحابة جيل فريد لا سبيل إلى تكراره، ولكن الاقتداء بهم فوق كونه واجبا شرعيا، هو أمر محمود في الواقع أيضا. وذلك أن سيرة الصحابة هي المرجعية التي ينبغي أن تُنصَب على أنها الغاية العليا التي نسعى إلى الاقتراب منها ما أمكن. فعلينا أن نقرر أن هذه الغاية هي دين الله الذي نعمل على تطبيقه، ولو لم نستطع اليوم أن نطبقه بحذافيره. فإن بقاء الغاية واضحة جلية - بقطع النظر عن القدرة الراهنة على تنزيلها في الواقع -، هو ما يوضح الطريق، ويحمي من الانحراف

سيرة الخلفاء الراشدين في الموضوع

فلننظر إلــى بعـض المــأثور عن الخلفـاء الراشدين في هذا البابروى ابن سعد في الطبقات بسند صحيح عن عطاء بن السائب قال: (لما استُخلف أبو بكر رضي الله عنه أصبح غاديًا إلى السوق وعلى رقبته أثواب يتّجر بها، فلقيه عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح فقالا له: أين تريد يا خليفة رسول الله؟ قال: السوق. قالا: تصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين؟ قال: فمن أين أطعم عيالي؟ قالا له: انطلق حتى نفرض لك شيئًا فانطلق معهما، ففرضوا له كل يوم شطر شاة وكسوة في الرأس والبطن).

فالرواية صـريحـة فـي أن أبـا بكـر رضـي اللـه عنـه لـم يـرضَ أن يأخذ من بيت مال المسلمين شيئا، حتى أذِن له الصحابة بذلك، وأنهم هم الذين فرضوا له ما يكفيه. وفي رواية أخرى أنه احتاج إلى أن يفاوضهم كي يزيدوه من العطاء: "لما استخلف أبو بكر جعلوا له ألفين، قال: زيدوني فإن لي عيالا، وقد شغلتموني عن التجارة، فزادوه خمسمائة".

وهذا صريح غاية الصراحة، في أن الأمة - ممثلة هنا في الصحابة الذين هم أهل الحل والعقد، ومجمع الشورى - هي التي تقرر ما يكون للحاكم من نصيب في بيت المال، وليس له أن يستأثر بشيء من ذلك دون رضاها الواضح.

ولما حضرته الوفاة - رضي الله عنه - أمر برد الزائد عنده من المال إلى بيت مال المسلمين، إيذانا منه بأن المال الذي فرضته الأمة له ليس ملكا له. فقارِن هذا بمن يورّث أموال المسلمين لأبنائه وأحفاده، دون أن تطرف له عين، ولا لمن يسوغون له ذلك!

وقد سار عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أيضا على الطريق نفسه، فلم يأخذ من المال إلا ما فرض المسلمون له. فقد أخرج ابن سعد أنه مكث زمانًا لا يأكل من المال حتى دخلت عليه في ذلك خصاصة، فأرسل إلى أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فاستشارهم في ذلك فقال: (قد شغلت نفسي في هذا الأمر فما يصلح لي فيه؟ فقال عثمان بن عفان: كل وأطعِم، قال: وقال ذلك سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل. وقال عمر لعلي: ما تقول أنت في ذلك؟ قال: غداء وعشاء، فأخذ عمر بذلك).

وكان يقول فيما رواه أحمد وأبو داود: (والله ما أحدُ أحق بهذا المال من أحد، والله ما من المسلمين أحد إلا وله في هذا المال نصيب ..).

وقد سـار عمـر بن عبـد العزيز - رحمه الله - على الدرب نفسه، فبدأ بعد توليه الخلافة برد أموال أسرته إلى بيت المال، ثم أجبر بني أمية على ردّ الأموال التي أخذوها بغير وجه حق إلى بيت مال المسلمين، وسماها "أموال المظالم".

وقد قيل له وهو على فراش الموت: تركت ولدك ولا مال لهم؟ فقال: (ما كنت أعطيهم شيئا ليس لهم، وما كنت لآخذ منهم حقا لهم ..).

وهكذا سنّ الخلفاء الراشدون للأمة طريق الرقابـة الماليـة على حكامها، فاستنبط الفقهاء من ذلك الأصول والقواعد اللازمة لضبط هذا الباب.

ملخص حكم الشرع في الموضوع

في قوله تعالى (كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم) تقرير أصل قرآني عظيم في مجال تداول الأموال بين أفراد الأمة، ومنع استئثار الأقوياء وأصحاب السلطة بها. وما ورد في الشرع من الأدلة على تحريم الظلم والاحتكار والغش والربا وأكل أموال الناس بالباطل والاعتداء على مال اليتيم والنساء وغير ذلك، يصب جميعه في اتجاه حسن قسمة الأموال بين المسلمين، على جهة العدل والمعروف.

وقد صرح النبي صلى الله عليه وسلم بأن المال مال الله، ولا يملك منه - عليه الصلاة والسلام - لنفسه إلا ما شرعه الله له. ففي الصحيح: (ما أعطيكم ولا أمنعكم، إنما أنا قاسم أضع حيث أمرت).

ومما ورد عن علي رضي الله عنه أنه قال: مرّت على رسول الله صلى الله عليه وسلم إبل الصدقة فأخذ وبرة من ظهر بعير فقال: (ما أنا بأحق بهذه الوبرة من رجل من المسلمين).
فإذا كان الحبيب المعصوم - صلى الله عليه وسلم - لا يملك من أموال المسلمين إلا ما فرض الله له، فكيف يحلّ لمن دونه أن يأخذها غصبا، وتسكت عن ذلك الأمة، بعلمائها وعامتها ؟



وقد خطر شيء من هذا ببال معاوية رضي الله عنه، لكنه وجد من المسلمين في ذلك الزمن الفاضل من بين له حرمة ذلك الفعل.فعن ضمام بن إسماعيل المعافري عن أبي (قبيل) قال: خطبنا معاوية في يوم جمعة، فقال: "إنما المال مالنا والفيء فيئنا، من شئنا أعطينا ومن شئنا منعنا"؛ فلم يرد عليه أحد. فلما كانت الجمعة الثانية قال مثل مقالته، فلم يرد عليه أحد. فلما كانت الجمعة الثالثة قال مثل مقالته، فقام إليه رجل ممن يشهد المسجد فقال: "كلا بل المال مالنا والفيء فيئنا، من حال بينه وبيننا حاكمناه بأسيافنا، فلما صلى أمر بالرجل فأدخل عليه، فأجلسه معه على السرير، ثم أذن للناس فدخلوا عليه، ثم قال: "أيها الناس إني تكلمت في أول جمعة، فلم يرد علي أحد، وفي الثانية، فلم يرد علي أحد، فلما كانت الثالثة أحياني هذا، أحياهُ الله، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "سيأتي قوم يتكلمون فلا يرد عليهم يتقاحمون في النار تقاحم القردة"، فخشيت أن يجعلني الله منهم، فلما رد هذا علي أحياني أحياه الله، و رجوت أن لا يجعلني الله منهم".

فرقابة الأمة على أموال المسلمين، وإنكارها على من يأخذ منها بغير حق، هو المنهج الإسلامي الصحيح لدرء الفساد المالي، والاغتناء غير المشروع، وذلك بقرون عديدة قبل أن تؤصل لذلك الديمقراطيات الحديثة.

وقد أجمع العلماء على أن المال الموجود في بيت مال المسلمين حق للأمة، لا يحلّ للحاكم أن يأخذ منه إلا بقدر حاجته، ولا يجوز له التصرف فيه إلا وفق ما حكم به الشرع. وتفصيل مصارف بيت المال موجود في كتب الفقه والسياسة الشرعية بما لا مزيد عليه. فلن يجد الظالم في التراث الفقهي مستندا يعتمد عليه لتجويز عبثه بأموال المسلمين، ومصالحهم المادية.

وإلى لقاء مقبل في موضوع آخر من موضوعات العلاقة بين الحاكم والمحكوم في الإسلام.



بطل صومالي

بقلم الدكتور الأسير: محمد موسى الشريف(1)



إن الأخبار التاريخية التي وردتنا عن منطقة القرن الأفريقي عامة والصومال خاصة لهي أخبار قليلة، لا تتناسب مع أهمية المنطقة وإشرافها على جزيرة العرب من جهة والدول الإفريقية المهمة من جهة أخرى، وربما كان لقلة المؤرخين في تلك المنطقة أثر في ذلك، ولعل مستقبل الأيام تخرج لنا بعض المخطوطات المهمة التي تتحدث عن تاريخ المنطقة باستفاضة.

والشخصية التي أتحدث عنها في هذه الحلقة هي شخصية مجاهد جليل، وقف أمام أطماع الصليبيين في الصومال التي هي - في تقديري- أهم بلاد القرن الإفريقي لموقعها الفريد ولاتساع مساحتها، وبرز منها مجاهدون عظماء، منهم الإمام أحمد بن إبراهيم الذي وقف ضد أطماع البرتغاليين والأحباش بقيادة الملكة هيلانة، وكان ذلك في الثلث الأول من القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، ولولا أن شرطي في هذه السلسلة ألا أورد أحداً من الشخصيات إلا إن كان من العصر الحديث لأوردته؛ فهو أحد العظماء المنسيين رحمه الله تعالى.

تنافس الأحباش والإيطاليون والإنجليز والفرنسيون على تقسيم الصومال والتهامه تطبيقاً لقرارات مؤتمر برلين سنة 1302هـ/1885 التي فتحت الباب واسعاً أمام الأطماع الصليبية في كل إفريقيا.



كان هذا الشيخ المجاهد محمد بن عبدالله حسن صوفياً على الطريقة الصالحية لكنه لم يكن مثل قَعَدة الصوفية ومثبطيهم؛ بل إنه ضرب المثل في الجمع بين الجهاد والتربية الروحية البعيدة عن الغلو، وكان هذا نادراً في العصر الحديث؛ كما هو معلوم، ولم يتحقق إلا لآحاد منهم عمر المختار والإمام شامل، ومهدي السودان وقليل غيرهم.

ولـد الإمـام المجاهد محمد بن عبدالله حسن في سنة 1864/1281 في شمال الصومال بالقرب من بوهوتلي، من أسرة عربية الأصل هاجرت إلى الصومال منذ زمن طويل، وكان أبوه من الأوجادين الجنوبية التي كانت تحت الإدارة الحبشية فانتقل إلى تلك المنطقة واستقر بها، واهتم بابنه فأرسله إلى مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم، والعلوم الشرعية في الأوجادين، والتقى بالمشايخ وعلماء المنطقة، واشتغل بالصيد والفروسية والملاحة، ثم حصل على لقب الشيخ وهو في التاسعة عشرة من عمره المبارك -وهذا دليل على نبوغه المبكر- ودرّس في المساجد والمراكز الدينية في هرر ومقديشو ونيروبي وغيرها، ثم عاد إلى بلاده وهو في الخامسة والعشرين فتزوج وواصل إلقاء الدروس، ووفد عليه جماعات من الطلبة الذين كانوا نواة لجنده فيما بعد.

وكان الإمام شاعراً، وله شعر يتناقله الصوماليون اليوم لكنه لم يُكتب في حياته.

وحج البيت الحرام سنة 1302هـ/1885 فوقف على أحوال المسلمين وأخبارهم فقد كانت مصر تموج بالاحتلال البريطاني، والسودان يثور بقيادة المهدي، فكانت رحلة الحج إعداداً نفسياً له لمواجهة الأطماع في الصومال، ثم توجه إلى فلسطين وزار بيت المقدس.

وفي سنة 1895/1313 قرر العودة لبلاده عن طريق عدن، وكانت بريطانيا قد أصبح لها اليد الطولى في موانئ القرن الافريقي مثل بربرة وزيلع، وفي عدن أيضاً، وقد حدثت له حادثة في عدن تنبئ عن نفسية الرجل، فقد طلب منه أحد البريطانيين مشاهدة المظلة التي في يده فأبى الإمام، فتبعه البريطاني وحاول أن يرى المظلة بالقوة فدفعه الإمام فسقط في البحر، فتعجب البريطانيون من جرأته على أحدهم، وهم يعدون أنفسهم سادة المنطقة، وكاد يسجن لولا أن الله أنقذه بوساطة الشرطة في عدن.

ثم توجه إلى بربرة التي لقي فيها عنتاً من رجال الجمارك الذي طلبوا منه رسوماً على أمتعته فقاله لهم: ومن الذي أعطاكم الإذن بالدخول إلى بلادنا؟

وأقام في بربرة مسجداً وأقبل على تعليم الناس وتربيتهم وتهذيبهم، وبدأ يحثهم على الجهاد ضد الأوربيين، وفي بعض المرات التقى بمجموعة من الأطفال الذين يتعلمون في مدرسة البعثة الكاثوليكية الرومانية في بربرة فعلم أنهم يعلمونهم مبادئ النصرانية المحرفة، ويغيرون أسماءهم حتى أنه سأل أحد الأطفال عن عشيرته فقال إنه من عشيرة البابا!! وعن اسمه فقال: يوحنا عبدالله!! فاشتكى إلى المقيم السياسي البريطاني في بربرة مطالباً إبعاد المنصرين عن الصومال.

وحذر قومه من طاعة النصارى، وطالبهم بألا يعلموا أطفال المسلمين اللغات الأوربية -التي كانت مقرونة آنذاك بالتنصير- وحثهم على العناية بهم وتحفيظهم القرآن وتعليمهم الشريعة، وابتدأ يعد العدة للجهاد وتوحيد القبائل في الصومال، حتى لاحت فرصة وهي أن أحد القساوسة كان يقطن بجوار أحد المساجد في بربرة فأزعجه الأذان فأطلق النار على المؤذن!! فاشتعل الغضب في نفوس المسلمين، فقاموا بهدم المركز التنصيري في ديمول ولاحقوا القس محاولين الفتك به، وحاولوا تحطيم كل المراكز التنصيرية، فأرادت بريطانيا التهدئة فقامت بترحيل كل المنصرين في باخرة إلى عدن، وتعهدت بعدم السماح لهم بالعودة، ومنع بناء كنائس في الصومال، وألا تفتح محلات لبيع الخمور، وهذا كله يعلمنا أن المسلمين إذا كانوا أصحاب همة عالية وعمل بنّاء فإن أحداً لا يستطيع الوقوف بوجههم.

وحدثت حادثة أخرى كانت هي الفتيل لإشعال الجهاد وهي أن أحد رجال الشرطة في بربرة هرب إلى الإمام وأعطاه مسدسه، فسمع القنصل البريطاني في بربرة بهذا فطلب من الإمام أن يرد المسدس فرد عليه الإمام رداً خشناً، وبعد شهور تلقى القنصل البريطاني رسالة من الإمام يتهم فيها الانجليز بالإساءة إلى الإسلام، وأنه يحتقر كل من يتعاون معهم، ويطالبهم بدفع الجزية!! وهنا طلب القنصل من حكومته إعداد العدة لقتال الدراويش، وهذه هي التسمية التي سمى بها الاستخراب البريطاني جماعة الإمام، وسموه هو بالملا المجنون، وكان يلقب -أيضاً- بمهديّ الصومال تشبيهاً له بمهدي السودان.

وخرج الإمام من بربرة إلى نوجال واشترى عدداً من البنادق الفرنسية، وصاحب هذا حضور بعض الجنود الأحباش إلى أوجادين لجمع الضرائب من السكان فهجم عليهم أتباع الإمام وعلى المعسكر الحبشي في جكجكة وغنموا أسلاباً كثيرة، وهنا انتبه امبراطور الحبشة مِنليك فتحالف مع البريطانيين لضرب الحركة الناشئة.

وهنا أدرك الإمام أن الوقت قد حان لإعلان الجهاد فأعلنه، وحث على الاستعداد لقتال النصارى، والصبر على الشدائد، وبهذا صار قائداً سياسياً وزعيمـــاً دينيـــاً معاً في منطقة الأوجادين، وابتدأ بإخضاع القبائل المجاورة لزعامته.

فأرسلت بريطانيا حملة بقيادة الكولونيل سواين، وجهز الأحباش جيشاً قوامه خمسة عشر ألف مقاتل تحت قيادة جابري، وكلفت الحكومة البريطانية همفري تراس التابع لفرقة فرسان الحرس الملكي بالتنسيق بين قوات الطرفين، وكانت مهمة الأحباش قطع الإمدادات عن المجاهدين من شعب الأوجادين وغيره، وكُلفت إيطاليا -التي كانت قد استقرت في بعض أجزاء القرن الإفريقي- بالضغط على سلطان ميجرتين المسلم!! لمنع وصول أي مساعدات للإمام ولمنعه من الهرب إلى الساحل، لكن الإمام عرف كل هذا وقام بتوزيع قواته ناحية الشرق، واستقر في منطقة بوهوتلي على حدود المحمية البريطانية في أوائل يناير سنة 1900م/ 1317هـ وحارب المجاهدون ثلاثة أشهر وأظهروا بطولات عظيمة، وأجبروا البريطانيين وغيرهم على التراجع، واكتفت بريطانيا بوضع قوات في برعو، واحتل الإمام بعض المواقع.

أرسلت بريطانيا حملة ثانية بقيادة الكولونيل سواين الذي تحرك في 1320/2/17هـ/ 26مايو سنة 1902 ومعه قوة احتياطية من الكتائب الملكية الإفريقية بقيادة الكابتن أسبورن مع 500 فارس من الصوماليين بقيادة موسى فارح من منطقة هود، ويا للعار من انعدام الولاء والبراء عند هؤلاء، وتمركزت قوات المجاهدين في إقليم بارن وكانوا حوالي ثلاثة آلاف مقاتل، وانتهت المعركة بمقتل مائة جندي بريطاني ولله الحمد والمنة وغنم المجاهدون غنائم جيدة.

استعانت بريطانيا بإيطاليا، وبالحبشة فوافق الإمبراطور منليك وأرسل خمسة آلاف مقاتل، تحت قيادة حبشية بريطانية مشتركة، وكان قائد البريطانيين مانىج وابتدأت الاشتباكات بين الطرفين 1320/12/25 -15مارس1903، وهزم الله البريطانيين الذين قتل منهم 29، ومن حلفائهم 187، وجُرح 29، وقد استمرت المعركة من السادسة صباحاً حتى الرابعة مساء أجبر بعدها البريطانيون وحلفاؤهم على الانسحاب، وقد قتل من جيش الإمام عدد كبير لا يُدرى كم هو، وأُخفقت الحملة الثالثة.

وعلى إثر هذه الانتصارات ارتفعت معنويات المجاهدين وقويت عزائمهم وكثر عددهم، والتفوا حول قائدهم الإمام محمد بن عبدالله حسن، فقررت الحكومة البريطانية إرسال حملة رابعة بقيادة الجنرال إيجرتون الذي أبحر من بومباي في 27 يونيو سنة 1321/1903هـ ووضع خطة محكمة للقضاء على الإمام أو أسره، وطالبت الحكومة البريطانية امبراطور الحبشة المشاركة في الحملة، ودفعت له خمسة عشر ألف جنيه استرليني ليتمكن من نقل قواته في تلك المناطق الوعرة، وهُزم الإمام واستشهد من قواته ألف مجاهد، لكنه لم يُؤسر.

وبعد المعركة اقترحت الحكومة البريطانية على الإمام أن تتنازل له عن أجزاء من المحمية البريطانية والإيطالية، وأن تعترف به كرئيس إقليمي مستقل، وذلك مقابل بعض الامتيازات، وأن يودع مبلغاً من المال لدى الحكومة الإيطالية كضمان لحسن سيرته وسلوكه وتسليم أحد أبنائه رهينة ونزع سلاح أتباعه فرفض الإمام، وحُق له أن يرفض فالخديعة ظاهرة في هذا العرض الصليبي، وطلب الإمام من سلطان ميجرتين تقديم المساعدة له لنقل قواته وماشيته عبر أرضه فكاد أن يوافق لكن الانجليز أنذروه بأنهم سيحتلون بلاده لو صنع، فرفض طلب الإمام، الذي اتجه إلى الساحل بقواته في منطقة أليج حيث يمكنه الحصول على السلاح من شبه الجزيرة العربية، لكن الانجليز لم يتركوه فهاجموا قلعته التي سقطت تحت قوة نيرانهم، وتنسيقهم مع الإيطاليين، وتكبد الانجليز قتل ثمانية ضباط وعشرين من الجند الوطنيين الخونة وسبعة عشر صومالياً غير نظامي، أما خسائر الإمام فقد بلغت ألفي شهيد!! وأسر منهم 304، واستولى البريطانيون على473 مسدساً وبندقيتين، وأعيرة نارية، ومائتين وثلاثة وعشرين حصاناً، و 36415 رأساً من الماشية، وهي خسائر هائلة، لكن الإنجليز خسروا خمسة ملايين جنيه في هذه الحملة وهو مبلغ هائل جداً آنذاك، وبعض المؤرخين يرى أن خسائر الإمام البشرية قد بولغ في تقديرها فهي أقل من ذلك، والله أعلم.

بعد هذه المعركة جنح الإمام للموادعة حتى يسترد أنفاسه ويعوض خسائره، وقبل وساطة الإيطاليين لعقد صلح مع البريطانيين والأحباش في اتفاق ستالوزا سنة 1323هـ/ 1905م ، ويبدو أن إيطاليا خافت على مستعمرتها أن ينتفض فيها الصوماليون فسارعت للوساطة بين الإمام وأعدائه، وكان من بنود الصلح ما يلي:

1. عدم تدخل الإمام في شؤون القبائل الصومالية التي تحت حكم بريطانيا.
2. ألا يشتري جنوده السلاح، وألا يقوي الإمام الجيش.
3. تحديد أماكن المجاهدين في نطاق إقليم واحد معين بين رأس جاراد ورأس جابي، وهي من مناطق النفوذ الإيطالي، وفي نوجال، وبين سلطنتي هوبيا وميجرتين.
4. رفع الحصار عن الإمام وتمكينه من شراء ما يحتاجه إلا السلاح، وألا يتجر بالرقيق.
5. الحرية الدينية للإمام وأتباعه.
6. أن يحكم الإمام أتباعه بنفسه.
7. إبلاغ المجاهدين الحكومة الإيطالية بكل ما يمكن أن يعرض أمنهم للخطر.
8. عقد معاهدة صلح بين الإمام وبين القوى الصليبية الثلاث: الحبشة وإيطاليا وإنجلترا.

استفاد الإمام من مدة الصلح هذه التي استمرت إلى سنة 1908/1326، واستطاع أن يجذب إليه بعض القبائل والعشائر، وكانت بريطانيا تحاول أن توغر صدر القبائل على الإمام حتى يوقعوا بينه وبينها، واتصلت بالدولة العثمانية عن طريق قنصلها هنالك محاولة أن تقنعها بالاتصال بالمشايخ في مكة حتى يصدروا فتوى تنكر فيها زعامة الإمام على قبائل الصومال لكنهم أخفقوا.



وهنا لجأ الإنجليز والإيطاليون إلى حيلة ماكرة حيث استغلوا طرد الإمام للحاج عبدالله شجاري -أخلص أتباعه ورفيق الجهاد، وممثله في المفاوضات- من حركته، فنظم القنصل الإيطالي رحلة لوفد فيه مشايخ كبار وأوكلوا رئاسته للحاج عبدالله شجاري، وذهب الوفد إلى مكة في يوليو سنة 1326/1908هـ واشتكى إلى شيخ الطريقة الصالحية الصوفية التي يتبعها الإمام وأتباعه، وكذلك ذهب وفد من زعماء قبائل الصومال إلى مكة للغرض نفسه، وكانت حجة الوفدين أن الإمام قام بأعمال منافية لنهج الطريقة الصالحية!! فأرسل شيخ الطريقة الصالحية في الحجاز محمد صالح خطاباً إلى الإمام، وانتهز الإنجليز الفرصة فقاموا بطبع الخطاب وتوزيعه على نطاق واسع بين الصوماليين فأثر ذلك في أتباع الإمام وزُعزعت ثقتهم فيه، فما كان من الإمام إلا أن ألف رسالة بعنوان "قمع المعاندين" وأرسل صورة منها إلى شيخ الطريقة الصالحية في مكة وإلى السلطان العثماني، لكن حدث انقسام بين قادة المجاهدين، واشتدت العداوة بينهم جراء ذلك كله، وعقد بعضهم اجتماعاً قرروا فيه عزل الإمام أو قتله وانتخاب خليفة له لمواصلة الجهاد أو إنهاء الجهاد وحَلّ الحركة، لكن الإمام قبض على قادة هؤلاء وأعدمهم.

وهنا قررت بريطانيا استغلال الفرصة وعقد صلح جديد مع الإمام عارضة عليه خمسين ألف جنيه استرليني شهرياً إذا حسن سيره وسلوكه، لكن الإمام اشترط تسليم عدوه الحاج عبدالله شجاري، ودفع بعض التعويضات، والقبض على الصوماليين الذين أثاروا المشكلات الآنفة الذكر، ففشلت المفاوضات، وقررت بريطانيا إخلاء الداخل وتسليمه إلى القبائل وتسليحها والاستقرار في الساحل فقط في المدن: بربرة وزيلع وبلهار، فلما حدث هذا انقضت قوات الإمام على أعوان البريطانيين من الصوماليين ففتكوا بهم، وعمت الفوضى وبدأت الحرب الأهلية، وتدمرت طرق القوافل، وانقطعت سبل التجارة.

وانتقل الإمام من مناطق الإيطاليين التي فُرضت عليه في معاهدة 1323هـ 1905م إلى مناطق النفوذ البريطاني التي ارتحل عنها البريطانيون، وبنى عدداً من الحصون والقلاع أهمها حصن تاليح الذي ظل مقراً له إلى سنة 1338هـ/ 1920م، واحتل جنوده المعسكرات البريطانية في الصومال، وبسبب ما جرى من الفوضى قررت بريطانيا إعادة النظر في قرارها، وكونت قوة للشرطة تحفظ بها الأمن في البلاد، وأرسلت إيطاليا قوة احتلت مقديشو حتى تحاصر الإمام من الجنوب، وأصدرت أوامرها لسلطان تيجيرتين الصومالي بمهاجمة الإمام!! لكن الإمام انتصر على القوة المشتركة، وكان ذلك في 1329/8/19هـ 15أغسطس سنة 1911، وهذا كله يوضح أن الإمام ما زال في يده مفاتيح القوة في الصومال.

وفي 1331/9/6/ 9 أغسطس سنة 1913 حدثت معركة ضخمة بين الإمام والإنجليز بقيادة كورفيلد في دلما دوبي، وانتهت بهزيمة الإنجليز ومقتل كورفيلد، ونشرت الصحف البريطانية خبر المعركة بعنوان: "كارثة مروعة لقواتنا في الصومال" وأنشأ الإمام قصيدة بعنوان مصرع ريتشارد كورفيلد، وحصل المجاهدون على غنائم كثيرة، وانتشرت الأخبار في كل أنحاء الصومال، وانضم إلى المجاهدين عدد كبير ممن كان تحت حماية البريطانيين، وخاف الإيطاليون من المجاهدين الذين استولوا على برعو، وبربرة، وأرسلت بريطانيا قوة نجحت في إيقاف تقدم المجاهدين لكن وقعت الحرب العالمية الأولى وانشغلت انجلترا بها.

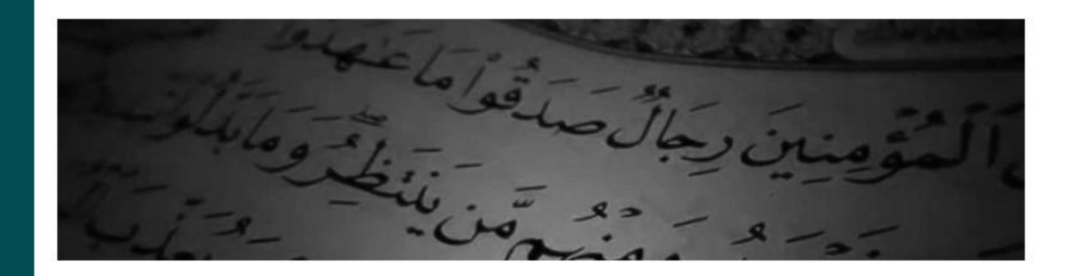
وفي المحرم سنة 1331هـ/ ديسمبر 1913 تولى على الحبشة الإمبراطور ليج ياسو الذي أسلم، وأرسل إلى الإمام مساعدات مالية وأسلحة، وأرسل له أحد الفنيين الألمان إلى حصن تاليح لإصلاح الأسلحة الأوروبية.

واتصل الإمام بالأتراك في عدن عام 1916/1335، وبالألمان، وفي ذلك الوقت أُبعد الامبراطور ليج ياسو عن الحكم ، وراسل الإنجليز الإمام طالبين الصلح فرفض، وواصل احتلال المواقع الحصينة منتهزاً فرصة انشغال الانجليز بالحرب العالمية الأولى ضد الألمان والأتراك.

وفي نهايات الحرب العالمية الأولى وبعد أن مالت النتائج لصالح الإنجليز وحلفائهم أرسل الإنجليز حملة حربية من الهند للحفاظ على موانئ الصومال واسترداد ما فقدوه من مدن، ووقعت معركة انهزم فيها جند الإمام وتراجعوا إلى الداخل.

وبعد نهاية الحرب العالمية الأولى قرر البريطانيون إنهاء المعركة مع الإمام، وأرسلوا الجنرال هوسكنز إلى بربرة لتقدير الموقف العسكري، ومن ثم قرر البريطانيون إرسال حملة من الجو -لأول مرة- والبر والبحر، ونسقوا مع الإيطاليين وزعماء القبائل الصومالية الموالية لها، وفي 1338/4/29هـ /21 يناير1920 ابتدأت القوات الجوية بضرب مواقع الإمام في ميديشي، واستمر القصف ثلاثة أيام جواً وبراً، ومات عدد كبير من المجاهدين، وانسحب الإمام إلى حصن تاليح، فأرسلت بريطانيا ثلاث طائرات حلقت على ارتفاع منخفض وأحرقت كل مواقع المجاهدين، وأسرت بعض زوجات وبنات الإمام وبعض قادته، واستطاع الإمام الفرار إلى منطقة باخيري، ومن ثم استقر في منطقة هي، وانضم إليه من بقي من رجاله المخلصين حتى بلغوا ألفاً ومعهم بعض الأسلحة، وهنا أرسل إليه الحاكم آرثر طالباً منه الاستسلام فرفض، ثم جرت جولات بينهما لم تسفر عن شيء، وهنا لما اشتد الحصار على الإمام انتقل إلى الأوجادين في الحبشة نازحاً من الصومال البريطاني طالباً الحماية لكن الأحباش قبضوا على رجاله، ومات الإمام في 1339/3/11هـ/ 23 نوفمبر 1920 متأثراً بمرض حَلّ به، ودفن في إيمي.

وهكذا انتهت قصة هذا الجهاد الرائع الطويل الممتد لأكثر من عشرين سنة حاكياً بطولة الإمام وأتباعه، وأن المسلم إن تعلق بالجهاد فإن أقوى القوى على ظهر الأرض ستقف عاجزة أمامه.



عوامل هزيمة الإمام

هناك عدة عوامل تضافرت لهزيمة هذا البطل منها :

1. العلة الدائمة في افريقيا السوداء آنذاك وهي ضعف عقيدة الولاء والبراء عند كثير من المسلمين التي أدت إلى تعاون بعض زعماء المسلمين مع الكفار ضد المجاهدين، وهذه بلية كبيرة، وتمثل هذا في حالة الصومال بوقوف زعماء هرر وهوبيا وميجرتين ضد الإمام، وبعض زعماء القبائل

2. قِصَر نظر بعض قادة المجاهدين الذين استجابوا لمكيدة الصليبيين وفتتوا صف الجهاد بقبولهم الذهاب إلى مكة واستصدار ما يضعف موقف الإمام أمام الصليبيين، وكان ذلك بسبب الأحقاد وسوء النظر.

3. القوة الحربية الهائلة لدى الانجليز خاصة سلاح الطيران الذي حسم المعركة في النهاية، وتحالف الانجليز مع الإيطاليين والأحباش ضده.

4. استخدام الإمام العنف في بعض الأحيان ضد بعض زعماء القبائل مما أثار حفيظتهم، وجنح بهم إلى أعدائه، وكان لقلة الوعي في القبائل أثر كبير في معاداة الإمام.

5. افتقاد الإمام الدعم من كل المسلمين خارج الصومال الذين كانوا مشغولين بأنفسهم وأحوالهم فلم ينجدوه ولم يلتفتوا إليه.

6. وجود الجواسيس والخونة في صفوف الصوماليين، وكانوا يدلون الانجليز على عورات جيش الإمام.

وقد دعا الإمام الصوماليين إلى قتلهم، وما أشبه صنيعهم هذا بصنيع العملاء والجواسيس والخونة اليوم في فلسطين والعراق وأفغانستان.

7. كان الإمام يتبع الطريقة الصالحية الصوفية التي تلقاها في مكة، بينما كان أغلب مشايخ الصومال يتبعون الطريقة القادرية، وهذا أدى إلى مناوئة المشايخ له وإضعاف قوته ولو اجتمعوا عليه لحصل خير كثير، لكن ما العمل وهذه علة يعاني منها المسلمون في كل زمان ومكان.

ومع كل تلك العوامل فقد كان لجهاد الإمام محمد بن عبدالله حسن أثر جليل، وتجلى فيه التالي :

1. قوة هذا الإمام وشجاعته وإباؤه، فقد تمالأت عليه قوى الإنجليز والإيطاليين والأحباش وطلبوا منه الصلح مراراً، وخضعوا عنده، وفشلت خمس حملات حربية وُجهت إليه من أقوى قوة موجودة على ظهر الأرض آنذاك، ورفض الاستسلام لهم حتى قضى نحبه عزيزاً كريماً.

2. إن المسلم الذي يعقد العزم على مواجهة الباطل وأهله يُحدث أثراً عظيماً في أعدائه، ويحيرهم بصموده وعزته، وينفع الله به، فهذا الإمام جاهد أعداءه عشرين سنة في أحوال لا تسعف، وأوقات الإدبار في العالم الإسلامي لا الإقبال ومع ذلك انظروا كيف استعصى على أعدائه ودوخهم.

3. إن المسلم الصالح الملتـزم بدينه الواعي لمتطلبات زمانه ذا العزيمة القوية هو العُدة الحقيقية لبلاده وقومه، وهو الأمل لهم بعد الله تعالى، أما ضعاف الإيمان والعزيمة والتطلعات فهم بلاء على أقوامهم وبلادهم، وقد ارتقى وعي هذا الإمام في أحوال كثيرة، واستطاع أن يتعامل مع معظم القوى التي كانت حوله آنذاك بحنكة وحسن تدبير، وإن خانه التوفيق ففي أحوال قليلة.

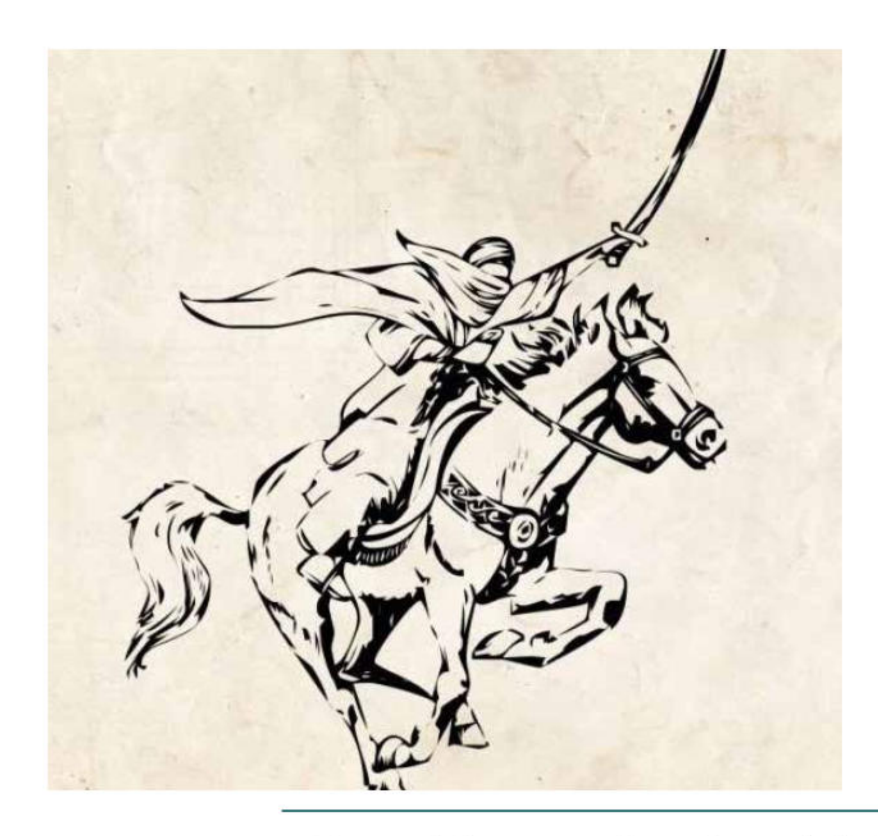
4. جمع الإمام بين التربية والجهاد والزعامة أي بين القوتين السياسية والدينية، وكان هذا أمراً نادراً في زمانه، وكان من توفيق الله تعالى له، فقد تيسر له شيء لم يتيسر لأكثر المصلحين في زمانه وقبله وبعده.

5. استطاع أن يجمع بين معظم قوى الشعب الصومالي ويوجهها لحرب أعداء الإسلام، وهذا -وإن كان في مدة قصيرة ولم يَطُل- لم يحدث في الصومال قبله منذ زمن الإمام أحمد بن إبراهيم الذي ذكرته في البداية.

6. حارب العادات السيئة المتفشية في الصومال مثل مضغ القات، والتدخين، وقام بمنع الاختلاط، وفرض الحجاب.

7. اهتم بالنساء، وأصلح حجابهن وضبطه، وعلمهن فنون القتال حتى كان منهم عدة فارسات.

وفي النهاية أقول إن الإمام المجاهد محمد بن عبدالله حسن يصلح أن يكون رمزاً للصوماليين اليوم يستلهمون منه العزة والقوة والشجاعة والإباء حتى يقفوا أمام أعدائهم المتربصين بهم شراً اليوم، والله الموفق



(1) فك الله أسره من السجون السعودية. مصدر المقال: موقع التاريخ، وقد نشر فيه بعنوان: الإمام المجاهد الصومالي محمد بن عبدالله حسن.

أُمُّ القضايا

د. عطية عدلان

الحمد لله .. الصلاة والسلام على رسول الله .. وبعد ..

ليس لأنَّها أولى القبلتين وثالث الحرمين ومسرى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وحسب، وإن كان كل اعتبار من هذه الاعتبارات الثلاث له وزنه في الحسّ الإسلاميِّ العام، وإنَّما تُعَدُّ قضية القدس أمَّ القضايا لهذه الاعتبارات ولأمر آخر أشد خطراً وأبعد أثراً، له جذوره الضاربة في أعماق التاريخ، وله آثاره الممتدة إلى قرب ظهور المسيخ.



والاطــلاع علــى هــذا الأمــر يسهـم بقدر عظيم في إيجاد حالة من الوعي الجامع لقضايانا المتفرقة، ويسهم مِن ثمَّ في وضع رؤية جامعة تُعَدُّ بمثابة مركز الدائرة بالنسبة لكل مشاريع حركات التحرير سواء منها القائمة أو القادمة، ويساعد على رؤية الطريق الجامع الذي يجب أن تصب فيه كل الطرق؛ حتى لا تتشعب بنا السبل.

ومن هناك، من تلك النقطة الغائصة في أعماق التاريخ الإنسانيّ تبدأ مسيرة الصراع الذي قدر له أن يستمر ويدوم إلى يوم يبعثون، هناك في العمق التاريخي السحيق يتلقى إبراهيم عليه السلام ذلك الوعد الإلهيّ بشرف الإمامة على البشرية: (إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا) وبدعوة منه مستجابة يمتد الوعد في ذريته، مشروطاً بأنَّه لن ينال الظالمين منهم: (قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ).

ويتدفق نسل النبيُّ الأمَّة في فرعين منحدرين من صلبه المبارك: فرع إسحاق الذي تشعب على تؤدة، فغرس في رحبة التاريخ شجرة بني إسرائيل، الذين فضلوا - رغم ما وقع منهم - على العالمين في تلك الأزمان، وفرع إسماعيل الذي ألقى بخلاصة عصارته في منتهى طرفه فكانت هذه الأمَّة المباركة: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا) (الفتح 29).

وسياق الشطر الأول من سورة البقرة قبل أن ينتهي إلى وعد الله لإبراهيم وذريته بالإمامة ينتهي إلى نتيجة مفادها أنَّ بني إسرائيل غيروا وبدلوا؛ بما يقضي بنزع الإمامة منهم؛ أمَّا سياق الآيات التالية لهذا الوعد الكريم فيسلط الضوء على الفرع الآخر من نسل إبراهيم عليه السلام، فيتحدث عن مكة والبيت العتيق وعن دعوة إبراهيم وإسماعيل بإخراج هذه الأمّة وبعث هذا النبيّ، وهذا يعني انتقال الوعد لهذه الأمَّة.

وهــذا الفضــل الــذي حازته الأمَّة الإسلامية بميراثها لوعد إبراهيم عليه السلام هو الذي حرك الحسد اليهودي المشار إليه في قول الله تعالى من سورة النساء: (أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا) (النساء 54) والناس هنا هم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته.

وقد مارست الأمَّة حقها هذا في وقت مبكر؛ وذلك بالإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى؛ إيذاناً بأيلولة ميراث إبراهيم كله إلى هذه الأمَّة، بما في ذلك الوعد لإبراهيم بالإمامة، والوعد له بأن يعطيه هذه الأرض المباركة له ولنسله من بعده - كما تنص على ذلك التوراة - فبالإسراء آلت القدس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبصلاته بالأنبياء إماماً في المسجد الأقصى توثق عقد الملكية الذي أوقف تنفيذه إلى أن تسلم أمير المؤمنين عمر مفاتيح بيت المقدس بعد الفتح الإسلاميّ له.

واللافت للنظر أنَّ الإسراء بما يحمله من هذه المعاني جاء على رأس منعطف هام في طريق الدعوة الإسلامية، وهو انتهاء القرآن الكريم من معركته مع الوثنية، وتقويضه لنظريتها من أصولها، ليبدأ مرحلة في الصراع جديدة استدعت إعداداً جديداً وتهيئة للأوضاع على نحو مناسب لها، وهي مرحلة الصدام مع عقيدة أهل الكتاب، تلك التي بدأت قبل الهجرة، وبدت خطوطها العريضة بعد آية الإسراء مباشرة :

(وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا (2) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (3) وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (4) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا (5) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (6) إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (7)) (الإسراء 2-7).

ولئن كانت الحروب الصليبية التي استمرت قرونا قد تولاها النصارى بدافع الاستيلاء على القدس واستردادها من أيدي المسلمين، فإنَّ هذا الدافع قد أخذ بعداً عقدياً أعمق في الحملات المعاصرة بعد التحام العهد القديم مع العهد الجديد، وبعد تحالف الفكر اليهودي مع الفكر الصليبي تحت مظلة المذهب البروتستانتي الممزوج بالنزعة الهمجية للأنجلوساكسون؛ ليبدأ الهوس الغربيّ بالوعد القديم، فيصدر وعد بلفور وبعده بقرن يصدر وعد ترامب.

إنَّها إذن حرب عقيدة، ومحورها القدس، ورحاها تدور على المسلمين في كل بلاد العرب، وتقف الشعوب منفردة في مواجهة هذه الحرب الضروس؛ بينما الحكام وأنظمتهم في نفق أعداء الأمَّة، ومن هنا نقول إنَّ المعركة واحدة، وإن العدو واحد، وإنَّ الثورة عليه واحدة، تتعدد ساحاتها وميادينها، وتتوسط القدس هذه الساحات والميادين، والغاية لنا ولهم واحدة، وغايتنا البعيدة هي عودة الأمَّة كما وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لدورها القيادي ومحورها يومئذ المسجد الأقصى والقدس.

وهذا السياق الذي يبرهن على صحته الشرع والواقع يوجب علينا التمسك بالهوية الإسلامية للثورة، كما يوجب علينا الاسترشاد بالأحكام الشرعية وبمعطيات ديننا في كل ما يتعلق بالتغيير بدء من المبادئ والأسس والهدايات، وانتهاء بالأدوات والآليات.



العلماء وقضية القدس وفلسطين

د. وصفي عاشور أبو زيد

"

العلماء ورثة الأنبياء، والأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر، وقد أقام الله العلماء أمناء على وحيه، واستحفظهم عليه بعد وفاة رسوله صلى الله عليه وسلم، واقتضى هذا الاستحفاظ أن يقوم العلماء بوظائفهم؛ بليغا للدعوة، وإقامة للحجة، ودفعا للشبهة



ولا شك أن قضية القدس وفلسطين من أهم قضايا الأمة الإسلامية التي يقاس (ترمومتر) الأمة الإيماني بها، ومحور الصرع في الأمة، بل هي مناط تحقيق سنة المدافعة بين الحق والباطل الذي يتجلى في القتال الدائر بين مشروع الصهاينة والإسلام.

والذي يجري الآن على أرض فلسطين من تهويد واغتصاب للحقوق والحريات، والأرض والعرض .. يوجب على العلماء القيام بواجبهم نحو هذه القضية المقدسة، التي تستمد قداستها من وجود بيت المقدس والأقصى الشريف.

وقد قام العلماء قديما بواجبهم نحو هذه القضية المحورية من قديم، وتتابعوا بعضهم بعد بعض، متمثلين قول الشاعر العربي القديم:

إذا سيدٌ منا خلا قام سيد قؤول لما قال الكرام فعول

ها هو العالم المجاهد الحر عز الدين القسام الذي ولد بسوريا وتعلم في الأزهر الشريف، وكان يعتبر الاحتلال البريطاني العدو الأول لفلسطين، ويدعو أيضا إلى محاربة النفوذ الصهيوني الذي كان يتزايد بصورة كبيرة، وظل ينادي الأهالي إلى الاتحاد ونبذ الفرقة والشقاق حتى تقوى شوكتهم.

وكـان يردد دائمـاً أن المقاومـة هي الوسيلة الوحيدة لإنهاء الانتداب البريطاني والحيلولة دون قيام دولة صهيونية في فلسطين، في وقت لم يكن فيه أسلوب الثورة القتالية أمرا مألوفا للحركة الوطنية الفلسطينية آنذاك، حيث كان نشاطها يتركز في الغالب على المظاهرات والمؤتمرات.

ولما شعر الاستعمار الإنجليزي بخطورته اغتاله بعد أن دارت معركة غير متكافئة بين الطرفين لمدة ست ساعات، سقط الشيخ عز الدين القسام وبعض رفاقه فيها شهداء في نهايتها يوم 20 نوفمبر1935م، وجرح وأسر الباقون، وكان لاستشهاده أثر هائل في اندلاع الثورة الفلسطينية الكبرى عام 1936، وكانت نقطة تحول كبيرة في مسيرة الحركة الوطنية الفلسطينية بعد ذلك، وكان (عز الدين القسام) هو الاسم المناسب الذي يتسمى الجناح العسكري لحركة حماس به (كتائب عز الدين القسام).



وهذا العلامة الفقيه الدكتور مصطفى السباعي الذي كان عالما متمكنا؛ حيث تعلم في الأزهر الشريف وحصل على درجة العالِمية منه، وهو ممن شاركوا في مقاومة الاحتلال الفرنسي، وكذلك الاحتلال الإنجليزي في مصر، وقاد الكتيبة السورية في حرب فلسطين عام 1948 أصدر عددا من المجلات، وألف كتبا، وكان له حضور واضح في الحياة البرلمانية في سوريا، حتى توفي عام 1964م.



الدكتور مصطفى السباعي

وقد قاد الإمام حسن البنا الكتائب لمواجهة الصهاينة وتحرير فلسطين عام 1948م، وكان هذا سببا مباشرا لاغتياله وهو ما يزال شابا؛ حيث استشهد في 12 فبراير 1949م عن 42 عاما.

ولعلماء فلسطين أثر يذكر فيشكر حتى تبلور في رابطة تجمع عملهم وأنشطتهم وجهادهم في الداخل والخارج، هي رابطة علماء فلسطين في الداخل، وهيئة علماء فلسطين في الخارج، ولها مواقف مشرفة من قضية فلسطين وقضايا الأمة كلها.

وهاهم علماء الأمة يقيمون مؤتمراتهم العلمية، ويكتبون بياناتهم الشرعية فيما أهم فلسطين من أمر دينها ودنياها، وبخاصة بعد قرار الرئيس الأمريكي ترمب باعتماد القدس عاصمة للصهاينة، وهو ما جعل العلماء يتداعون لرفض ذلك والتحريض ضده واستنهاض الشعوب لرفض هذه الخطوة واستنكار هذا القرار المخالف للشرائع والحقائق والأعراف والقوانين الدولية.

ثم ها هم يصدرون ميثاقهم لمقاومة موجة التطبيع التي يسارع لها كثير من المسلمين اليوم حتى انتهت بزيارات للبعض إلى الأرض المحتلة .. أصدر علماء الأمة ميثاقهم الذي يرفضون فيه هذا التطبيع فبينوا مفهومه وصوره وأشكاله، وحكمه الشرعي، وذكروا مفاسده على الأنحاء كافة، ورسموا به الطريق أمام الأمة بشرائحها كافة ليقوم كل بواجبه، وليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حيَّ عن بينة، وإن الله لسميع عليم.

وسوف يظل العلماء يبينون للناس حكم الشرع في المستجدات والنوازل، وبخاصة مـا يتعلق بقضيتنا الأولى فلسطين، ينفون عن الدين تأويل الجاهلين، وتحريف الغاليـــن، وانتحال المبطلين، والله متم نوره ولو كره الكافرون، ولينصرن اللـه من ينصــره إن الله لقوي عزيز.





المشرف العام
محمد إلهامي

مدير التحرير
معتز زاهر